Université 8 Mai 45
Guelma Algérie

جامعة 8 ماي 45
قالمة الجزائر

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de L'enseignement Supérieur Et de la recherche scientifique

جامعة 8 ماي 1945 قالمة — *Université 8 Mai 1945 Guelma*

كليّـة الآداب واللغـات — *Faculté des lettres et des langue*

قسم اللغة والأدب العـربي

محـاضرات في النّثر الجزائريّ القديم

- موجّهة لطلبة السّنة أولى ماستر -
تخصص: أدب جزائريّ

إعداد الدّكتورة:
أحـــلام عثامـنيـــة

الموسم الجامعي: 2022 – 2023

المادة: نثر جزائري قديم

محتوى المادة:

	المادّة:نثر جزائري قديم / محاضرة + تطبيق	السداسي: الأوّل	المعامل: 2	الرصيد:3

	المادّة:نثر جزائري قديم / محاضرة + تطبيق
	مفردات المحاضرة
01	الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر
02	تعريب الجزائر
03	لمحة عن الأدب الجزائري القديم
04	الخطب والوصايا (الدولة الرستمية، الدولة الحمادية)
05	الخطب والوصايا (الدولة الزيانية، العهد العثماني)
06	الرسائل الديوانية
07	الرسائل الإخوانية
08	رسائل إلى الباب العالي لأحمد باي قسنطينة
09	تاريخ المقامات وخصائصها المشتركة
10	مقامات ابن حمادوش
11	المقامة عند ابن ميمون
12	الأمثال والحكم في الجزائر
13	المنام الكبير لابن محرز الوهراني
14	خصائص النثر الجزائري القديم

بسم الله الرحمن الرحيم

تعدّ فنون النّثر الجزائريّ القديم إرثا أدبيا زاخرا بالأشكال الأدبية، ألف فيها الجزائريون بعد الفتوحات الإسلامية، وهي تصلنا بتاريخنا القديم وتربطنا بأنساقه الثقافية. لها من الخصوصيات ما يجعلنا نتعرف على الحياة الاجتماعية للمجتمعات حينئذ، في مراحل مختلفة من تاريخها، كما نتعرف على قيّمها وعاداتها وتقاليدها ونمط عيشها، وهو ما يمنح هذه المادة الأدبية هوية خاصة، بحيث لها القدرة على ملامسة وجدان القارئ، والتأثير فيه، وإغناء معرفته بذاته وبهويته. لذلك تظل الفنون النثرية الجزائرية في حاجة إلى دراسات نقدية جادّة، ووفقا لمناهج البحث المعاصرة؛ إذ لم تلق هذه الفنون الاهتمام اللائق بها من قبل الباحثين المعاصرين بحجة صعوبة الحصول على المادة الأدبية.

لذلك حاولنا من خلال هذه المحاضرات تقديم لمحة عن النثر الجزائري القديم متطرقين إلى الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر.

ثم عرّجنا بالحديث عن تعريب الجزائر، وإعطاء صورة عن الأدب الجزائري القديم، وبعد ذلك خصصنا حديثنا عن فني الخطب والوصايا اللذين ظهرا في الدولة الرستمية والحمادية، ثم انتقلنا للحديث عنهما في الدولة الزيانية والعهد العثماني.

وبعدها خصصنا حديثا عن الرسائل بنوعيها: الديوانية والإخوانية متتبعين مسارهما في التراث الجزائري القديم، لننتقل بعد ذلك للتّطرق إلى فن المقامة (تاريخها وخصائصها)، وأشهر أعلامها في الأدب الجزائري القديم كابن حمادوش وابن ميمون.

ثمّ عرّجنا إلى الأمثال والحكم الجزائرية القديمة، ثمّ المنام الكبير لابن محرز الوهراني، وأخيرا خصائص النثر الجزائري القديم.

قبل التطرّق إلى الحديث عن الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر لابد من الوقوف أوّلا عند أصل السكان.

1/ أصل السكان:

البربر هم سكان شمال إفريقيا؛ وقد كانوا يسمون حسب المؤرخ هيرودوت بالليبيين[1]، ثمّ سمّاهم الإغريق، والمصريون، والرومان فيما بعد بالبربر، وبقيت هذه التسمية إلى يومنا هذا.

تطلق هذه الكلمة على الأشخاص الذين لا يمكن التواصل معهم لاختلاف لغاتهم، وتباين لهجاتهم، وبمعنى أدق هم شعب غير متحضر.

وتذكر بعض المصادر التاريخية[2] أنّ إفريقش بن قيس بن صيفي[3] من ملوك التبابعة اليمنية لما غزا إفريقية[4] التي سمّيت نسبة إليه، وقتل جرجير، وبنى المدن، لما رأى هذا الجيل من الأعاجم، وسمع رطناتهم، وأدرك اختلافها، وتنوّعها تعجب من ذلك وقال:" ما أكثر بربرتكم "، أمّا المؤرخ الأوربي بوسكي فيقول بأنّها كلمة من أصل لاتيني barbarus، وتعني الشخص الذي لا ثقافة له، والذي ينتمي إلى الشعوب المتخلّفة التي تعيش خارج نطاق روما.

أمّا البربر فيسمّون أنفسهم بالأمازيغ أي الرّجال الأحرار.

---

[1] ينظر: – موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية، الجزائر، ط2، 1981، ص18.

– محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، (د، ط)، 1992، ص21.

[2] – تاريخ ابن خلدون، 6/ 140.

– يحي بن خلدون، بغية الرواد، 1/ 90.

– الاستقصا، 122/1.

– محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1286هـ، ص15.

[3] البلاذري، فتوح البلدان ، بيروت، 1987، ص321.

[4] قيل سميت إفريقية باسم أهلها، وهم الأفارقة من ذرية قوط بن حام بن نوح عليه السلام سمّوا باسم البلاد، وقيل إنّ إفريقش بن أبرهة بن ذي القرنين لما غزا بلاد المغرب، ودوخ البلاد بنى مدينة سميت باسمه، فقالوا إفريقية، وسمّوا أهلها الأفارقة.

– المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص15.

اختلف المؤرخون العرب، والأوربيون حول أصل البربر[1]، إلاّ أن الأغلبية منهم متفقون على أنّهم قدموا إلى الشمال الإفريقي عن طريق مصر، وليبيا مهاجرين من موطنهم الأوّل بجنوب آسيا الغربي، ممّا يدل على أنّ البربر ليسوا هم سكان المغرب الأولين، وعلى الرُّغم من ذلك فإنّهم يعتبرون هم السكان القدماء للشمال الإفريقي.

وهناك من يذكر[2] أنّهم من أصل يمني، ومنهم من نسبهم إلى سيّدنا إبراهيم، عليه السلام ومنهم من يقول إنّهم من قبائل شتى من حمير، وقريش، والعمالقة، والقبط، وهناك من يقول إنّ البربر خليط من العماليق، والكنعان، أمّا ابن خلدون فقد نقض كلّ هذه الأقوال فذهب إلى:" أن البربر هم أبناء كنعان ابن حام بن نوح، أجدادهم سمّوا بمازيغ، من أصل آسيوي، عاشوا في بلاد ما بين النهرين ثمّ هاجروا إلى الشمال الإفريقي عن طريق مصر، وفي الأخير يقول إنّهم بمعزل عن العرب إلّا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة، وكتامة، بل هم من إخوانهم"[3].

وقُسّم البربر إلى قسمين[4]: البُتر، وهم أبناء مادغيس الأبتر بن بر بن مازيغ، والبُرنس، وهم أبناء برنس بن بر بن مازيغ.

غلب على البتر[5] حياة البداوة، وانتجاع المرعى الخصيب، والماء الكثير، بينما غلب على شعوب البرانس عموما الاستقرار في القرى الساحلية، والتّلية، والجبليّة للزراعة، ولتربية المواشي فهم من فريق المستضعفين على حدّ قول ابن خلدون.

ومن قبائل البتر نذكر: مديونة، ولواتة، وزناتة، وزواوة، ونفوسة، ومطغرة، ومطماطة، وزواغة، ومغيلة، ونفزة.

أمّا البرنس فمنهم: كتامة، وأوربة، وصنهاجة، ومصمودة، ولمطة، وجزولة، وعجيسة، وهسكورة.

---

[1]- ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1982، ص494.

- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ الجزائر في القرون الوسطى من كتاب العبر من ثلاثة أجزاء، جمع وتقديم: سعيد دحماني، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط1، 2011، ص199.

[2] ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص90.

[3] تاريخ ابن خلدون، 6/ 126.

[4] المصدر نفسه، 6/ 149.

[5]- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص90.

- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص257.

بدأت أسراب من الشعب الفينيقي اللبنانيفي القرن العاشر قبل الميلاد تجوب:" سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم، وتبادل السلع مع سكان البربر، فاختاروا عنابة، وجيجل، وبجاية، وشرشال، وسكيكدة، وهنا بدأ الاختلاط بين الطرفين، وأخذوا ينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية، ويعلمونهم الزراعة، والملاحة، والتجارة، وكانت قوافلهم تجوب الجنوب، وتحمل منه بعض الزنوج، وسمحوا لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالنزول في مدنهم"[1].

وفي سنة 146 قبل الميلاد نشب صراع هائل بين قرطاجة، وروما انتهى باستيلاء هذه الأخيرة على المدن الفينيقية في الجزائر التي استوطنتها كثير من الأسر الرومانية، وكانت قوافل روما تتجه نحو الجنوب، وتعود محمّلة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون في الزراعة، والرّي.

ولما دمّر الإمبراطور تيتوس معبد بيت المقدس سنة 70 للميلاد وفد:" على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية، واستولت جموع الوندال الألمان من روما على الإقليم الجزائري في سنة 439 للميلاد، وظلّت نحو مائة عام إلى أن أخرجهم منها قائد بيزنطي سنة 534 للميلاد، وخلّفهم البيزنطيون، وجنودهم، وموظفوهم الإغريقيون"[2]. مُفاد هذا الكلام أنّه كان يعيش في الجزائر خلال القرن السادس الميلادي سبع سلالات: سلالة أساسية من البربر أصحاب البلاد ثمّ سلالات من الفينيقيين، والزنوج، واليهود، والرومان، والوندال الألمان، واليونان.

2/ الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر:

حين استقر سلطان العرب في مصر، اتجه نظر عمرو بن العاص نحو إقليم برقة لتأمين قاعدة الفسطاط الجديدة، وللحفاظ على المكاسب العربية في مصر خوفا من بيزنطة التي تود استرجاعها عن طريق طرابلس، وبرقة، فما كان من هذا الوالي إلاّ أن بعث السرايا، والطلائع لاكتشاف المنطقة، والتّعرف على السكان، ومن ثمّة فتحها، وإدخالها في الدين الجديد، وجعلها عربية إسلامية.

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات: الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، ص 51.

[2] المصدر نفسه، ص53.

كان عقبة بن نافع[1] أوّل قائد بعثه عمرو بن العاص إلى هذه المنطقة، وهو الذي اختـط مدينة القيروان كثكنة عسكرية استقر فيها الجيش العربي، ومنها بدأت الفتوحات الإسلامية لبلاد الجزائر، والمغرب الأقصى.

وفي سنة إحدى وخمسين[2] عزل معاوية عقبة بن نافع عن إفريقية، وولى مسلمة بن مخلد[3] مصر

---

[1] هو عقبة بن نافع بن عبد الله بن قيس الفهري، وهو الذي بنى القيروان، وقاتل البربر، وتوغّل في أرضهم.

ترجمته في: – جذوة المقتبس، ص288.

– تاريخ ابن خلدون، 4/ 236.

لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على المراجع الآتية:

– ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت)، 1/ 8– 78.

– موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط2، 1981.

– أبو القاسم الرعيني القيرواني، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1286هـ.

– هشام جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني هـ/ السابع والثامن م)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص11.

– عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تح: أحمد بن ميلاد، محمد إدريس، تقديم ومراجعة: حمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص29– 66.

– حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، (د، ط)، (د، ت)، ص109– 155.

– ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، (د، ت)، (د، ط)، 1/ 246– 292.

– أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت)، ص22– 35.

– عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 1996، ص 121.

[2] – مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص174، 175.

– العياشي، ماء الموائد، 2/ 522.

– الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، 1/ 124.

[3] هو مَسْلَمَةُ بن مَخْلَدِ بن الصّامت بن نِيَار بن لَوْذان بن عبد وُدّ بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة، من الأنصار، ويكنى أبا معمر.

روى مسلمة بن مخلد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحوّل إلى مصر، فنزلها، وكان مع أهل خَرِبْتا، وكانوا أشدّ أهل المغرب وأعدّهُ، وكان له بها ذكر، ونباهة، ثمّ صار إلى المدينة، فمات بها في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

ترجمته في: – ابن سعد، الطبقات الكبرى، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، (د، ط)، 7/ 504.

وإفريقية، فنزل مسلمة مصر، واستعمل على إفريقية مولى له يسمى دينارا، ويكنى أبا المهاجر[1].

لما نزل أبو مهاجر دينار إفريقية كره أن ينزل بلدا اختطه عقبة، فبنى مدينة جديدة على بعد ميلين من القيروان، سميّت بتكيروان، وأخذ النّاس بعمارتها، وإخلاء القيروان، وفي مدّة أبي المهاجر افتتحت جزيرة شريك، وهي قريبة من مدينة تونس.

رجع عقبة بن نافع غاضبا إلى المشرق، وعاتب معاوية بن أبي سفيان على فعلته قائلا له:" بأنّه هو الذي افتتح البلاد، وجاء غلام أنصاري أساء عشرته"[2]، فاعتذر له معاوية، ووعده بإرجاعه إلى عمله، ولكنّه لم يفعل، ولما توفي معاوية خلفه ابنه يزيد الذي ولى مجدّدا عقبة على إفريقية.

وفي سنة اثنين وستين خرج عقبة إلى إفريقية، وكان حاقدا على أبي المهاجر، فأوثقه في الحديد، وأمر بتخريب المدينة التي بناها، والعودة إلى القيروان، وعمارتها، وبعدها خرج للغزو في سبيـــل الله مخلّفـا وراءه على القيروان زهير بن قيس البلوي[3].

مضى عقبة بن نافع في عسكر عظيم حتى بلغ مدينة باغاي:" فقاتل بها النصارى قتالا عظيما، فانهزموا، وأخذ لهم خيلا كثيرة، أعجب بها المسلمون حيث لم يَرَوْ في مغازيهم أصلب منها، ولا أصبر في الحروب"[4]. كانت هذه الخيول من نتاج جبل أوراس المطلّ عليها.

بعدها مضى إلى مدينة لميس، التي كانت في ذلك الزمان من أعظم مدائن الروم، فخرج إليه أهلها، فقاتلهم قتالا شديدا، فانهزموا، واتبعهم إلى باب حصنهم، وأصاب منهم مغانم كثيرة، ثمّ رحل

---

[1] هو أبو المهاجر دينار، فاتح من القادة. كان مولى لبني مخزوم، ولما ولي مسلمة بن مخلّد مصر، وإفريقية استعمله على إفريقية بدلا من عقبة بن نافع.

ترجمته في: – الاستقصا، 1/ 136.

– تاريخ ابن خلدون، 4/ 237.

– الأعلام، 6/3.

[2] ينظر: – ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص78.

– الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، 1/ 125.

[3] أمير من القادة الشجعان الفاتحين. شهد فتح مصر، وولاه أميرها عبد العزيز بن مروان على برقة سنة 69هـ، فكانت له مع البربر، والروم وقائع. والبلويّ نسبة إلى بَلِيّ، وهي قبيلة من قضاعة.

ترجمته في: – تاريخ ابن خلدون، 4/ 238.

– الأعلام، 3/ 52.

[4] رحلة الورثيلاني، 1/ 124.

إلى بلاد الزاب، وسأل عن أعظم مدائنها قدرا، فقيل له مدينة يقال لها أُذنة[1]، فذهب إليها، وأخضعها هي الأخرى، ثمّ سار إلى تاهرت، فلما سمع الروم به استغاثوا بالبربر فأغاثوهم، وبادروا إلى نصرتهم، والتقى الجمعان، واقتتلوا قتالا ذريعا لم يصمد فيه البربر والروم، فانهزموا هزيمة نكراء، وتفرّقت جموعهم.

ثمّ قصد المغرب الأقصى، وأخضعه، وفي أثناء العودة مرّ ببادس، وتهودة ليُبْقِيَ فيهما بعض الفرسان، ولكن عندما انتهى إلى تهودة أغلق الروم أبواب حصنهم على عقبة وجعلوا يشتمونه، ويرمونه بالحجارة، ويدعوهم هو إلى الله، فلما توسط البلاد بعث الروم كسيلة البرنسي[2].

كان كسيلة هذا ممّن أسلم على يد أبي المهاجر، وذلك أنّ أبا المهاجر نهض إلى المغرب، ونزل عيونا عند تلمسان تعرف باسمه، فزحف إليه كسيلة في جمع من البربر يريد القتال، فظفر به أبو المهاجر، وعرض عليه الإسلام، وكان يحسن إليه.

فلما عُزل أبو المهاجر أخبر عقبة بحال كسيلة، لكن عقبة استخف به، وأتى بغنم، وأمر بذبحها للعسكر، وكان كسيلة ممّن أمره عقبة بالذبح والسلخ، فقال كسيلة:" سيقوم غلماني بذلك لكن عقبة أبى، فقام كسيلة من مكانه مغضبا، وكان كلما دحس يده في الشاة مسح بلحيته، وجعل العرب يضحكون، ويقولون له يا بربري ما هذا الذي تصنع، فيقول لهم إنّه جيّد فيسكتون، فقال لهم شيخ من العرب إنّ هذا البربري يتوعدكم"[3]، فلما سمع أبو المهاجر عاتب عقبة على صنيعه، قائلا له كيف تهين رجلا جبارا في قومه، ومكان عزّه، وهو قريب عهد بالإسلام، وتهينه وتذلّه، فتهاون عقبة بكلامه.

ولما افترق على عقبة عسكره، وبقي معه إلا خمسة آلاف جنديا حاصره كسيلة بخمسين ألفا من الجنود بمقربة من تهودة، فأمر عقبة أبا المهاجر باللحاق بالمسلمين في إفريقية ليقوم بأمرهم لكنّه أبى، وبذلك استشهدا معا في موقعة تهودة من أرض الزاب على يد كسيلة أواخر سنة 63هـ.

[1] تقع شرقي توزر. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/ 132.

[2] تاريخ ابن خلدون، 4/ 399.

[3] رحلة الورثيلاني، 1/ 126.

أرسل عبد العزيز بن مروان والي مصر لعبد الملك بن مروان[1] زهير بن قيس البلوي جيشا عظيما، وأمده بالمال لينتقم من حادثة تهودة، فقتل زهير كسيلة، وعددا لا يحصى من البربر في موقعة ممس جنوب القيروان. ومضى العرب في طلب الثأر من البربر المهزومين، فقتلوهم قتالا شديدا، وافتتحوا بذلك عديد من المدن.

خلّف زهير بن قيس البلوي حسان بن النعمان الغساني[2] الذي قضى على أشهر الثائرين في جبل الأوراس ألا وهي الكاهنة: دهيا بنت ثابت القراوية[3].

لما سمعت الكاهنة بخبر حسان جمعت جيوشها، وانتقلت إلى باغاي وتحصّنت بها، وكانت تراقب من هذا المكان تحركات المسلمين، وتكون في نفس الوقت قريبة من قبيلتها جراوة حتى تطلب منها المساعدة إن احتاجت إلى ذلك.

التقى الفريقان ودارت بينهما معركة كبيرة. أسرت فيها الكاهنة من أصحاب حسان ثلاثين رجلا أطلقت سراحهم فيما بعد إلاّ خالد بن يزيد القيسي الذي كان من أشهر رجال حسان، وكان لها ولدان، فقالت له:" إنّي أريد أن أرضعك مع ولديّ هاذين، فعمدت إلى دقيق شعير فلثته بزيت ثمّ جعلته على ثديها، ثمّ أمرت ولديها أن يأكلا منه مع خالد فأكلوه، وقالت لهم أنتم إخوة من الرّضاع"[4].

---

[1] هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد، من أعظم الخلفاء، ودهاتهم. نشأ في المدينة، فقيها واسع العلم متعبدا، ناسكا، وشهد يوم الدار مع أبيه، واستعمله معاوية على المدينة، وهو ابن ست عشرة سنة، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة 65هـ، فضبط أمورها، وظهر بمظهر القوة، فكان جبارا على معانديه، قوي الهيبة، واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب، وعبد الله ابني الزبير في حربهما مع الحجاج الثقفي.

ترجمته في: - الطبري، 8/ 56.

- اليعقوبي، 3/ 14.

- الأعلام، 4/ 165.

[2] هو حسان بن النعمان بن عديّ الأزدي الغساني، من أولاد ملوك غسان، قائد من رجال السياسة، والحرب من المشهورين في الفتوحات الإسلامية. كان يلقب بالشيخ الأمين.

ترجمته في: الأعلام، 2/ 177.

[3] الزياني، الترجمانة الكبرى، ص149.

[4] رحلة الورثيلاني، 1/ 128.

ملكت الكاهنة إفريقية خمس سنين، في ظل غياب حسان، وكان خالد الواسطة بينه وبين الكاهنة، وكان يمدّه بالمعلومات عنها، وعن جيشها، ولما وصل كتاب خالد إلى حسان خرج بالجيوش، فلقي في طريقه ثلاثمائة رجل من النصارى يستغيثون من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب، واحراق ضيعهم، ووصل إلى قابس، فخرج إليه أهلها وطلبوا منه الأمان، كما استغاث به كل من أهل قفصة، وقسطيلية، ونفزاوة، فسرّه ذلك، وبلغ الكاهنة قدومه، فرحلت من جبل الأوراس تريده في جيش عظيم، فلما كان الليل دعت ابنيها، وأخبرتهما أنّها مقتولة، فقال لها خالد:" ارحلي بنا، واتركي لهم البلاد، فقالت له كيف أفر، وأنا ملكة، والملوك لا تفرّ، وأورث قومي عارا"[1]. ثمّ خرجت الكاهنة ناشرة شعرها، وحمي وطيس المعركة، وانهزمت الكاهنة، وتبعها حسان حتى قتلها، وقطع رأسها عند بئر يعرف ببئر الكاهنة.

هكذا، إذا، دخل العرب إلى بلاد الجزائر حاملين مشعل الدين الجديد وظلّت:" تقتحمها جيوش عربية حتى اكتمل الفتح، وقضت على ما نشب بها من ثورات، ومن ثمّة استجابت الجزائر لدعاة الدّين الإسلامي، ولولاتها الكبار الذين سوّوا فيه بمنتهى العدل بين الجنود المسلمين الفاتحين، وبين من يسلم من البربر في جميع الحقوق والواجبات"[2]، وبعدها تولى المغرب مع فواتح القرن الثاني للهجرة ولاة طغاة حرموا البربر من حقوقهم التي شرعها الإسلام، ممّا جعل بعض البربر يعتنقون مذهبي الإباضية، والصفرية اللذين يسويان بين البربر والعرب في جميع الأمور، وهبّت ثورات متعاقبة منذ سنة 122هـ يقوم بها أتباع الصفرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبي[3].

---

[1] رحلة الورثيلاني، 1/ 129.

[2] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات: الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان، ص51.

[3] هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ابن أبي صفرة الأزدي، أبو خالد: أمير من القادة الشجعان في العصر العباسي. ولى الديار المصرية سنة 144هـ للمنصور، فمكث سبع سنين وأربعة أشهر، وصرفه المنصور سنة 152هـ، ثمّ ولّاه إفريقية سنة 154هـ، فتوجه إليها، وقاتل الخوارج، واستقر واليا بها خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر، قضى في خلالها على كثير من فتن البربر، وغيرهم. وتوفي بالقيروان. كان جوادا ممدوحا شديد الشبه بجده" المهلب" في الدهاء، والشجاعة.

ترجمته: - تاريخ ابن خلدون، 4/ 247.

- بغية الرواد، 1/ 78.

- الأعلام، 8/ 180.

كان بالجزائر قبل الفتوح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة، جمهورها من البربر ومن نزلوا بديارهم من الفينيقين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين، ثم نزلها العرب ومن انتظم في جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية: من إيران والعراق والشام ومصر، وظلّت جيوش متعاقبة تنزلها في العهدين الأموي والعباسي، كما ظلّت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر في البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسي مختلطة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية، وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغة هناك، هما تعاليم الإسلام السمحة التي حررت البربر من ظلم الدول السابقة التي احتلتهم، فقد رأوه دينا قويما يسوّي بين أتباعه في جميع الحقوق.

والعامل الثاني سياسة ولاته وبخاصة في القرن الأول للهجرة وما كفلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق.

وقد عني موسى بن نصير بأن يعهد في الأنحاء التي لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم، فدخلت في عهده جماعات بربرية كثيرة في الدين الحنيف.

كما مكّن النشاط التعليمي في انتشار العربية في الجزائر، والمتجسد في تلقين الفقه، وتفسير القرآن وتأويل الحديث، وتحفيظ نصوصها للنّاشئة. وقد مهد لذلك تلك البعثة الفقهية التي كان أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى شمال إفريقيا.

العوامل التي أدت إلى انتشار العربية في الجزائر :

1/ هجرة بعض الفرق الإسلامية إلى بلاد المغرب[1]:

إنّ الفتنة الطاحنة التي وقعت على عهد عليّ بن أبي طالب، والنتائج الخطيرة التي تولدت عن قتله وهو يصلّي الفجر في مسجد الكوفة، عام أربعين للهجرة؛ أفضت بحكم طبيعتها إلى تمزق في الرؤية الإسلامية وتشعب الناس في مذاهب وفرق، انبثقت مباشرة عن هذه الفتن الهوجاء، وأهم هذه الفرق: الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، وكل فرقة من هؤلاء تنقسم على نفسها.

وقد عنف الأمويون بكل الفرق الإسلامية التي لم تدن لسلطانهم ولم ترض بحكمهم، ومن تلك الفرق الخوارج الذين تعرضوا ، على عهدهم، لمذابح رهيبة لا تشرف بأي وجه من الوجوه حرية الرأي التي كرم الله بها الإنسان المتمدن، والتي يجب أن تكون حقا من حقوقه، فاضطر أهل النزعة الخارجية

[1] عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، دار هومة، الجزائر، (د، ط)، 2003، ص32، 33.

المتطرفة في الحق إلى التشتت شذر مذر، من أرجاء الأقطار الإسلامية المفتوحة فيمّم بعضهم بعض بلاد المغرب، وخصوصا جبال نفوسة بليبيا على عهدنا الراهن، وبعض المناطق الداخلية من الجزائر، وخصوصا تيهرت وضواحيها.

ويبدو أنّ الخوارج كان يجمعهم مع البربر خصائص منها تطلّعهم الشديد إلى الحرية والانطلاق، ورغبتهم في إقامة نظام للسلطة غير خاضع للخلافة العباسية البعيدة عاصمتها منهم.

ولعلّ من أجل كل ذلك ألفينا عبد الرحمن بن رستم، يفيد من هذه العوامل مجتمعة، فيعمد إلى الاستنجاد بالبربر فيلتحد إليهم في أشد الساعات حرجا، فيحمونه، ويؤوونه، ثم لا يلبثون أن يبايعوه عليهم أميرا، وببعض ذلك يتوجه نزوح بعض الخوارج من المشرق إلى الجزائر، بتأسيس أول دولة خارجية في التاريخ؛ تصطنع العربية لها لسانا في الجزائر.

2/ أثر تأسيس الدولة الرستمية في التّمكين للعربية من الانتشار[1]:

إنّ هذه الدولة الرستمية عجيبة التركيب، غريبة التكوين، ناشزة التجانس؛ فقد نشأت والحروب طاحنة ببلاد المغرب؛ بحيث لا تكاد حرب تضع أوزارها حتى تضطرم حرب أخرى مكانها، أشرس وأضرى، ويضرمها ثائر من الثوار، أو متعطش للسلطان، أو مستعذب لسفك الدماء وما كان أكثر أمثال هؤلاء الثائرين المشاغبين على السلطان، على عهد الدولة العباسية المتنائية الأطراف، المتباعدة الأرجاء.

ويبدو أنّ الخوارج، بحكم تطلعهم العارم إلى الثورة على النظام القائم، كانوا يمثلون شيئا من التجانس مع بربر إفريقيا الشمالية الذين كانوا يهوون أن يحاربوا ويثوروا، هم أيضا لأسباب مختلفة، ويبدو أنّهم لم يميزوا أوّل الأمر بين الاحتلال الروماني والاحتلال الوندالي، والفتح العربي الإسلامي.

وقد وقع تأسيس الدولة الرستمية تحت ظروف اضطرارية لم تك قط متوقعة، ولا مخططا لها من قبل على نحو دقيق، فقد جاء عبد الرحمن بن رستم من القيروان التي كان عليها واليا، وبعد أن علم أنّ الأشعث مبعوث أبي جعفر المنصور قتل أبا الخطاب في معركة بطرابلس، أمعن الهرب نحو الغرب إلى أن بلغ قبيلة لماية؛ فأنم عليها عليها لقديم حلف كان بينه وبين أهلها.

وحين وقع تأسيس الدولة الرستمية بدأت العربية في الجزائر في الانتشار والشّيوع بين السّكان انطلاقا من أواخر النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، فآثرت هذه الدولة لغة الدين الإسلامي

[1] عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، ص33.

والقرآن لسانا لها لاتفاق الجزائريين يومئذ عليها، على أساس أنها الأداة المعرفية التي تمكنهم من الإلمام بالشريعة الإسلامية وأصولها بوجه مباشر.

3/ الرّحلة إلى المشرق لطلب العلم[1]:

ظلت الرحلة في طلب العلم مظهرا مشرفا ونبيلا في الثقافة العربية الإسلامية حيث ظلّ الناس يتبادلون الرحلة من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق خصوصا للنهل من ينابيع المعرفة، والسماع من أكابر العلماء المفكرين ومجالساتهم ومناقشاتهم، فيما كان يعرض لهم من مسائل العلم، وقضايا المعرفة، ويبدو أنّ تقاليد التعليم على تلك العهود كانت تؤثر السماع من أفواه العلماء على قراءة كتبهم، فكان المتعلمون، أو قل طلاب العلم على الأصح يلتمسون مشافهة الرجال، والاتصال بهم شخصيا، وكانوا يفتخرون بذلك ويتباهون.

ولعل أهم رحلة احتفظ بها التاريخ قام بها مثقف جزائري، تلك الماثلة في رحلة بكر بن حماد التيهرتي الذي باكر إلى النهوض بهذه الرحلة وهو في سنّ السابعة عشر.

ولقد أتيح للشاعر بكر بن حماد، الفتى الجزائري المعتد بنفسه أن يجالس أدباء بغداد ومفكّريها وفقهاءها ومفكريها، والذي يعنينا هنا والآن إنما هو الجانب الأدبي المحض، ومنهم أبو تمام الطائي، ودعبل الخزاعي، وعلي بن الجهم، وأبو حاتم السجستاني..وسواهم من الأدباء والمفكرين في العاصمة العباسية التي يبدو أنها كانت أهم مدينة وأكبرها في العالم أثناء القرنين الثالث والرابع للهجرة.

ويبدو أنّ بكر بن حماد كان أول شخصية فكرية جزائرية: ميلادا ومنشأ ونسبا ودارا، ترقى إلى أن تبوئ شهرة عربية في المشرق والمغرب والأندلس حيث تصدّر للتّعليم بالقيروان عام أربعة وسبعين ومائتين للهجرة، وقد ارتحل إلى الشيخ خلق كثير من أهل الأندلس وأخذوا عنه.

والحق أنّ رحلة بكر بن حماد تنصرف إلى تعليل انتشار العربية بين المثقفين في الجزائر حين تلقى تعليمه الأول بمدينة تيهرت في بيئة ثقافية تتخاصب فيها ثقافات إسلامية متعارضة تنتمي إلى فرق الإباضية، والصفرية والواصلية.

وواضح أنّ لغة التعليم والتأليف والإبداع والتفكير كانت لغة الضاد؛ إذ لم تكن البربرية تعيش مع العربية إلا معايشة العامية للفصحى اليوم.

[1] عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، ص38.

4/ الهجرة الهلالية[1]:

حدثت في منتصف القرن الخامس للهجرة هجرة قبائل بني هلال إلى تونس، والجزائر انتقاما من المعزّ بن باديس[2] حيث أوقف الدعوة العبيدية الفاطمية، وصرّح بالخلافة العباسية.

رأى وزير المستنصر أن يستخدم قبائل بني هلال ضد المعزّ بن باديس، ووعدهم بامتلاك دياره، وأغراهم فركبوا النيل، ودخلوا البلاد، ففرّ المعز من القيروان إلى المهدية، وتدافعت سيول من بني هلال، وكانوا بدوا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهبون، ويتلفون الزرع، فرأى صاحب قلعة بني حماد أن يترك لهم الريف، وينتقلوا إلى ساحل البحر(بجاية) .

هذه الهجرة الأعرابية الضخمة التي يقول المؤرخون إنّ عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابي والتي انتشرت في الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم في إتمام تعرب المغرب واصطباغه بصبغة عربية كاملة.

إذا على الرُّغم من إحداث هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب في الجزائر غير أنّها أفادتها كثيرا في استكمال تعريبها، حيث بدأت في التّعرب منذ القرن الأول الهجري لأنّ الجنود المسلمين أخذوا ينشرون الإسلام، ومبادئ العربية.

---

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص110.

[2] هو المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية. ولد بالمنصورية (من أعمال إفريقية)، وولي بعد وفاة أبيه سنة 406هـ، وأقره الحاكم الفاطمي صاحب مصر والمغرب، ولقبه بشرف الدولة، وساد الأمن في أيامه، وبنى بنايات، ومساجد أنفق عليها أموالا وافرة، وقرّب العلماء، وأكرمهم، ونشبت بينه وبين قبائل زناتة حروب انتصر في جميعها.

ترجمته في: - الأعلام، 7/ 269.

- وفيات الأعيان، 2/ 104.

- تاريخ ابن خلدون، 6/ 157.

- البيان المغرب، 1/ 267.

حفل التراث الجزائري بصنعة الكتابة، ورفع لواءها أدباء خاضوا في إنشاء القريض خوضهم في الديباجة النثرية العربية بنسقها الموكول إلى عصرها، من حيث طرائق الصّوغ الفنّي في صناعة الكتابة.

والحديث عن الأدب الجزائري لا ينبغي أن ينطلق من أقرب فترة، أي من فترة النهضة العربية الحديثة، أو من فترة الحركة الاستعمارية بشكل عام، وإنما يكون من الإنصاف لهذا الأدب، أن نؤرخ له منذ عصوره الغابرة، شأنه شأن التأرخة للأدب في المشرق العربي.

ولا شك أن الباحث في جذور هذا الأدب سيقف على نتاج متنوع، ويجمع بين التركة الأدبية والتركة اللغوية، في مسيرة متأنية، حسب البيئة التي احتضنت هذا الأدب وحسب الذهنية المنتجة.

لا نبالغ إذا قلنا إننا لم نكن أقل شأنا من المشارقة في فضاء الأدب، ولا نبالغ إذا حكمنا على موروثنا الأدبي في الجزائر بأنه ذلك الشبح الذي يتوارى كلما حاولنا الاقتراب منه، ونفض الغبار عنه، والعلّة في ذلك تكمن في التهميش من جهة، وفي قلة المصادر، إن لم أقل غيابها، من جهة أخرى.

وإذا كان المعلوم أن "الكمال إنما يتحقق في الماضي" كما قال أبو عمرو بن العلاء، فإن أدبنا برهن حسب ذهنيات أصحابه على أنه مرجعية ثقافية مميزة، لا يمكن تجاهلها، حتى وإن زهد الباحثون في الاهتمام بها. وسأحاول تتبع محطات هذا الأدب حتى يتسنى الانطلاق من قاعدة صلبة، تجلو هوية الأدب العربي في الجزائر. ولن يتم ذلك إلا برصد نماذج من أبنية نصية متنوعة.

1/ الدولة الرستمية:

ظهر أول جيل من الأدباء الجزائريين على عهد الدولة الرستمية (160-296هـ). وكانت عاصمة الرستميين مدينة تيهرت، المعروفة باسم "عراق المغرب" أو "بلخ المغرب"[1]، وقد شهدت انتشار المعرفة بها وازدهارها.

ومن الشخصيات البارزة في هذا الطور:

1- الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، الذي ترك خطبا ورسائل ذات طابع سياسي ديني، بالإضافة إلى مقتطفات شعرية كقوله مثلا[2]:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا * * يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

[1] الأبلخ: هو العظيم في نفسه، الجريء على ما أتى من الفجور. ينظر محمد بن منظور، لسان العرب مادة (ب،ل،خ)، ج3، ص9.

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص30.

حتى وإن مات ذو علم وذو ورع * * ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

لله عصبة أهل العلم إن لهم * * فضلا على الناس غيابا وحضارا

2– أبو سهل، وله مصنفات احترقت في الفتن التي أصيبت بها تيهرت في أواخر الحكومة الرستمية.

3– أبو الفضل أحمد بن القاسم البزار.

4– ابن الصغير الذي خلف كتابا تراكيبه أقرب من العامية منها إلى الفصحى.

5– يهودا بن قريش التاهرتي: وهو واضع أساس النحو التنظيري، وقد اهتم بالبحث في اللغات (العربية والعبرانية والبربرية والآرامية).

6– أحمد بن فتح التاهرتي: انتقل إلى المغرب الأقصى وكان أديبا وشاعرا. ومن شعره: "ساكنات البصرة:"

ما حاز كل الحسن إلا قينة * * بصرية في حمرة وبياض

7– بكر بن حماد: ولد بتيهرت سنة 200 هـ. كان حافظا للحديث ونابغة في الشعر ممّا جعله يصاحب أدباء تصدروا الطليعة في ميدان القريض كأبي تمام، ودعبل الخزاعي، وعلي بن الجهم، ومسلم بن الوليد.

خلّف الرجل ديوانا شعريا بعنوان "الدُّرُّ الوقاد"، وتزعم الحركة الزهدية في الأدب المغاربي، كما كان يتزعمها أبو العتاهية في المشرق.

ومن شعره في الزهديات[1]:

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت * * وقد مرقت نفسي، فطال مروقها

فيا أسفي من جنح ليل يقودها * * وضوء نهار لا يزال يسوقها

إلى مشهد لا بد لي من شهوده * * ومن جزع للموت سوف أذوقها

ستأكلها الديدان في باطن الثرى * * ويذهب عنها طيبها وخلوقها

ومن شعره في رثاء ولده[2]:

بكيت على الأحبة إذ تولوا * * ولو أني هلكت، بكوا عليا

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص36.

[2] بكر بن حماد التاهرتي الدر الوقاد، تقديم وجمع وشرح محمد بن رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، ط1، 1966، ص87.

فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا * * وفقدك قد كوى الأكباد حيا

كفى حزنا بأني منك خلو * * وأنك ميت وبقيت حيا

ولم أك أيسا فيئست لما * * رميت الترب فوقك من يديا

والجدير بالذكر أن الدولة الرستمية تمثل صدر الإسلام بالجزائر (القرن الثاني هجري/الثامن الميلادي). مؤسسها عبد الرحمن بن رستم عاشق المذهب الإباضي الذي كان داعيته سلامة بن سعد.

وعبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى من سلالة الفرس، ولد بالعراق، في البصرة، وفيها التقى التلاميذ من بلدان مختلفة (القيرواني، والمغربي، والعماني، واليمني، والحجازي، وغيرهم) يدرسون جميعا على يد الشيخ أبي عبيدة مسلم، المعروف بـ: "القفاف"، وذلك لتظاهره بصناعة "القفاف" في أثناء إلقاء دروسه السرية المحظورة وتظاهر تلاميذه بتعلّم الصنعة منه.

كان عبد الرحمن بن رستم رجل علم، وأحد حملة ذلك العلم من البصرة إلى المغرب العربي المتعطش إلى العلم والمعرفة. وعلى نفس الطريقة سار ابنه الإمام أفلح بن عبد الوهاب، المذكور آنفا.

لُقب عبد الرحمن بن رستم بصقر فارس مثل عبد الرحمن الداخل الذي لقب بصقر قريش[1].

بقي أن نشير إلى أن عبد الرحمن بن رستم هرب من بطش العباسيين، فغادر تونس إلى الجزائر وأسس بها أول دولة مستقلة، كما سبق الذكر.

نختم عهد بني رستم بخاتمة الشاعر بكر بن حماد. يحكى أنه لما أشرف على الموت، حاول النهوض فعجز، فقال متألما:

أحبو إلى الموت كما يحبو الجمل * * قد جاءني ما ليس لي فيه حيل

توفي بكر بن حماد سنة (296هـ) شمال مدينة تيهرت.

2/ فترة الأغالبة:

بعد الفترة الرستمية، ننتقل إلى فترة الأغالبة (184-296هـ). اتخذ الأغالبة "طبنة"، الواقعة وسط إقليم الزاب الجزائري عاصمة لحكمهم. وأصبحت "طبنة" قاعدة الجزائر الشرقية في الحركة العلمية والأدبية (...) ويجدر بالتسجيل أن الفقه طغى على الفنون الأخرى بحيث نجد الفقهاء أكثر

[1] ينظر بحاز إبراهيم: عبد الرحمان بن رستم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ط)، 1990، ص18 وما بعدها.

عددا من الأدباء، وهؤلاء أنفسهم لهم إلمام كبير بالفقه، لأن الحالة الاجتماعية كانت تدعو إلى تعاطي العلوم الدينية أكثر من سواها[1].

ومن الأسماء البارزة على عهد الأغالبة محمد بن حسين الطبني، وأحمد وعلي وهما إخوة. كان الأول منهما "أديبا بليغا وشاعرا مُقَدَّما، قصد الديار الأندلسية ودخل قرطبة في عهد الناصر وسكنها"[2]. وممّا قاله في وصف ربوع خلت من أحبابه[3]:

وأصبحت بعد أشواق ربوعهم * * مثل السطور إذا ما رثت الكتب

فقرا يبابا، كأن لم تغن أهلة * * تبكي على حتفها غربانها النعب

كأن باقي مغانيها وأرسمها * * منابر نصبت والطير تَخْطُب

وظهر إسحاق الملشوني، نسبة إلى "ملشون"، وهي قرية من قرى بسكرة؛ وأبو الفضل عطية الطبني؛ وأبو العباس محمد البريدي المتوفى سنة 276 هـ، وهو أحد كتاب الدولة الأغلبية[4]وأحسن ظرفائها، ومن شعره وهو في السجن[5]:

هبني أسأت، فأين العفو والكرم * * قد قادني نحوك الإذعان والندم

يا خير من مدت الأيدي إليه أما * * ترثي لمن بكاه عندك الإذعان والندم

بالغت في الصفح، فاصْفَحْ صفح مُقتدرٍ * * إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

3/ الفترة الفاطمية:

بعد الأغالبة، نشط الفاطميون (296-361هـ)، واتخذوا من "المسيلة" عاصمة لهم، فقصدها أرباب الثقافة من كلّ فوج وصوب. والفضل في ذلك يرجع إلى مؤسسها ووالِيها علي بن حمدون[6].

يمثل هذه الفترة خير تمثيل الشاعر الكبير بن هانئ الأندلسي الذي هاجر إلى المغرب وبالذات إلى منطقة الزاب. ومن شعره في الأمير جعفر بن علي:

خليلي، ما الأيام إلا بجعفر * * وما الناس إلا جعفر، دام جعفر!

---

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 1981، ص43.

[2] المرجع نفسه، ص47.

[3] المرجع نفسه، ص48.

[4] مؤسس دولة الأغالبة: إبراهيم بن سالم التميمي.

[5] رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1986، ص105.

[6] ينظر محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص60

وقوله في يحي[1]:

فلا تسألاني عن زماني الذي خلا * * فو العصر، إني قبل يحي لفي خسر!

4/ الفترة الصنهاجية: (547-405هـ)

زعيم الصنهاجيين، بلقين بن زيري بن مناد، كان واليا على الجزائر، واستطاع أن يحقق للمغرب العربي ما لم يستطعه حكام المغرب قبله، وواصل المشوار بعده، ولده المنصور، وبعد المنصور، بويع ابنه باديس، فكلف عمه حماد بن بلقين بإدارة أمور المغرب الأوسط. ولم يلبث أن أصبح حمّاد صاحب النفوذ المطلق بالجزائر، وغدت الدولة الحمادية أول دولة بربرية بالجزائر الإسلامية، وكانت عاصمتها القلعة. وكانت العربية هي اللسان الرسمي للدولة الحمادية مع أن رؤساءها برابرة لكون العربية لغة القرآن والدين[2].

ازدهر الأدب في فترة الحماديين من حيث الكم، وأمّا من جهة الكيف فظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية، وإن كان قد ضاع نتاج هذه الفترة بسبب الاضطرابات، إلا أن هناك رجالا جزائريين عاشوا في تونس وصل إلينا شيء من آثارهم الأدبية ومن هؤلاء:

1- أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني، ومن شعره[3]:

خليلي، إن لم تساعداني فاقصرا * * فليس يداوى بالعتاب المتيم

تريداني مني النّسك في غير حينه * * وغصني ريان ورأسي أسحم

2- ابن رشيق القيرواني: لقب بالقيرواني لطول مكوثه بالقيروان، وقد خلف ما يربو على ثلاثين كتابا، منها "الشذوذ في اللغة"، و"العمدة"، وهذا الأخير كتاب نقدي متصل بقضايا الشعر.

والجدير بالذكر أن ابن رشيق كان أول شاعر جزائري نظم في المجون والخمريات، ونحا نحو أبي نواس. ولابن رشيق كتاب هام عنوانه: "أنموذج الزمان في شعر القيروان". ولفظ "الزمان" في هذا الكتاب يعني أن ابن رشيق قد خصص كتابه للشعراء والأدباء المعاصرين لعهده، والذي كان يعج بالكثير منهم بلاط معز ابن باديس الصنهاجي.

---

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص61.

[2] المرجع نفسه، ص71.

[3] رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص301.

ومن شعره في رثاء القيروان[1]:

أمست وقد لعب الزمان بأهلها * * وتقطعت بهم عرى الأقران

فتفرقوا أيدي سبأ وتشتتوا * * بعد اجتماعهم على الأوطان

3- عبد الكريم النهشلي: هذا الناقد الجزائري هو أستاذ الحسن بن رشيق القيرواني، وهو كاتب وشاعر بارع، ولد بالمحمدية التي نسميها اليوم "المسيلة"، ورحل إلى القيروان واشتهر بكتاب في النقد عنوانه: "الممتع" طرح فيه قضايا هامة كمسألة القديم والجديد، ومسألة اللفظ والمعنى، والسرقات الأدبية، والطبع والصنعة.

4- ابن قاضي ميلة: شاعر انتهج منهج عمر بن أبي ربيعة في الغزل فاعتمد الحوار القصصي في شعره. يقول في أحد المطالع: **بذيل الهوى دمعي وقلبي معنف**[2].

5- ابن الربيب: كتب في النثر والشعر، ورسالته عن ابن حزم الأندلسي أكبر شاهد على تفوقه في النثر الفني. كما تدل هذه الرسالة على أن الجزائريين كانوا على بينة من أخبار الملوك والأمراء والكتاب والوزراء.

6- يوسف أبو الفضل بن النحوي: تفنن في شعر التوسلات والابتهالات، واشتهر بقصيدته المعنونة بـ: "المنفرجة". ومن حلو شعره[3]:

لبست ثوب الرجاء، والناس قد رقدوا * * وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت: يا سيدي، يا منتهى أملي * * يا من عليه بكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أمورا أنت تعلمها * * مالي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي للضر مشتكيا * * إليك يا خير من مدت إليه يد

7- أبو عبد الله بن محرز بن محمّد الوهراني: بذكر الوهراني نتذكر بديع الزمان الهمذاني. لقد شكل الوهراني ظاهرة فريدة في الأدب الجزائري على عهد الموحدين، وانتهج منهجا هزليا في أدبياته. من آثاره: "رسائل الوهران، و"جليس كل ظريف"، و"المنامات."

[1] رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص318.

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص90.

[3] رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص271.

وعلى ذكر "المنامات"، اشتهر الوهراني بـ "منامه الكبير" الذي سلك فيه مسلك أبي العلاء المعري في "رسالة الغفران". والكتاب مطبوع في مصر، سنة 1968 بعناية وتحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش.

والذي يطالع آثار الوهراني تبدو له براعته في التهكم والتصوير الهزلي، وقد يصنف أدبه ضمن الفن الكاريكاتوري. توفي الوهراني عام 575هـ.

5/ الفترة الحفصية: (627-943هـ).

من الأسماء البارزة في هذه الفترة:

1- محمّد بن حسن القلعي: كان شاعرا سخي الدمع، سخي الجيب، ويده ويد الطلبة في كتبه سواء، لا مزية له عليهم، كان جيد الشعر، يسلك فيه مسلك أبي تمام. من شعره في الزهد[1]:

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا * * أن المقام بها كاللمح بالبصر

أفناهم أولاهم وآخرهم * * لم يبق منهم سوى الأسماء والسير

2- أحمد بن أبي القاسم الخلوف: شاعر الحفصيين دون منازع. انتقلت أسرته من فاس إلى الجزائر واستوطنت قسنطينة وبها ولد سنة 829هـ.

له ديوان شعري خاص بالمديح النبوي. وله كتاب: "تحرير الميزان لتصحيح الأوزان في العروض"، وكتاب: "مواهب البديع في علم البديع".

عرف الخلوف بـ"ذي الصناعتين" لاشتهاره بجودة الشعر والنثر.

دام حكم الحفصيين 378 سنة، وقد قال أبو الحسن عندما دارت به الدائرة مع نهاية الحكم[2]:

وكنا، أسودا والرجال تهابنا * * أتانا زمان فيه نخشى الأرانبا

مع القرن السابع الهجري، بدأ الأندلسيون في الهجرة إلى الجزائر، وكان حظ تلمسان من المهاجرين الأندلسيين أوفر من غيرها، فكثر النتاج الأدبي، وازدهر فن التوشيح الذي تعود أصوله في الجزائر إلى القرن الخامس هجري مع الشاعرين الكبيرين الأريسي وابن فكون. وأمّا في القرن السابع، فاشتهر شمس الدين محمد بن عفيف التلمساني المعروف بالشاب الظريف. توفي وعمره سبع وعشرون سنة.

[1] ينظر محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص147.

[2] عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، ط1، 1986، ص107.

له ديوان شعر ومقامات العشاق. ومن موشحاته[1]:

قمر يجلو دجى الغلس * * بهر الأبصار مذ ظهرا

في أواخر القرن السابع هجري، ولد الشاعر الكبير محمد بن خميس بتلمسان سنة (650هـ). كان صاحب براعة في التعبير، ومتانة في السبك. ومن آخر أقواله[2]:

لمن المنازل لا تجيب هواها * * مُحيت معالمها وصم صداها

ومن حكمه[3]:

وإن ظلمت فلا تحقد على أحد * * إن الضغائن فاعلم تنشئ الفتنا

يأبى ثراء المال علمي وهل * * يجتمع الضدان علم ومال؟

توفي الشاعر قتيلا يوم عيد الفطر، وذلك بعد الانقلاب الحكومي الذي أودى بصديقه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، ورمي الشاعر بباب الفخارين.

وعرف الأدب الجزائري القديم شعر التصوف، ومن شعراء الصوفية في الجزائر آنذاك أبو مدين بن شعيب، الذي "ولد بإشبيلية، وتعلم بفاس، ثم حج، وعند أوبته توطن بجاية. توفي قرب تلمسان سنة (594هـ) ودفن بقرية العباد في تلمسان وضريحه بها مشهور مزار"[4].

ومن شعره[5]:

لألطافك الحسنى مددت يد الرجا * * وحالي كما تدري، وأنت المؤمل

قصدتك ملهوفا فؤادي لما طرا * * وأنت رؤوف محسن متفضل

من شعراء الصوفية أيضا الشاعر أبو حمّو موسى الثاني الذي عرف بشعر المولديات (الاحتفال بليلة المولد النبوي). ومن أشهر مولدياته (سنة 760هـ)[6]:

نام الأحباب ولم تنم * * عيني بمصارعة الندم

---

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص157.

[2] المرجع نفسه، ص197.

[3] المرجع نفسه، ص180.

[4] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني، مطبعة اتحاد كتاب العرب، دمشق، (د، ط)، 2002، ص9.

[5] المرجع نفسه، ص130.

[6] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص213.

6/ فترة المرينيين:

ومع انتقال الحكم إلى المرينيين من (647-814هـ)، برزت أسماء جديدة كالمليانى وهو أديب شاعر. توفي عام (715هـ). ومن شعره[1]:

العز ما ضربت عليه قبابي * * والفضل ما اشتملت عليه ثيابي

وبرز محمّد ابن مرزق الخطيب، وأحمد بن قنفد القسنطيني، صاحب الرحلة المشهورة: "أنس الفقير، وعز الحقير". طبعت هذه الرحلة بالرباط سنة 1956 م. وله كتاب الوفيات.

7/ فترة الجزائر العثمانية (930هـ- 1246):

كان الأتراك رجال حرب، وليس رجال أدب، لذلك لم يهتموا برجال الثقافة. وسرى الضعف في مفاصل الأدب على عهدهم، فغلب عليهم طابع الجفاف. ولم يظهر أدباء حقيقيون إلا في القرن الحادي عشر، ومنهم:

1- أحمد المقري الذي ولد في تلمسان سنة 986هـ، وخلّف ثروة أدبية منها "أزهار الرياض" و"نفح الطيب."

ومن جميل شعره[2]:

لكن قدرة مثلي غير خافية * * والنمل يعذر في القدر الذي حملا

ومن روائعه أيضا[3]:

فقل لجديد العيش لا بد من بلى * * وقل لاجتماع الشمل، لا بد من شت

هو القدر الجاري على الكره والرضى * * فصبرا وتسليما لما قدر الله

2- عبد الكريم بن محمّد الفكون:

عاصر هذا الأديب الرجل السابق، أحمد المقري. ومن مؤلفات عبد الكريم، رسالة من نوع الإخوانيات وشرح على أرجوزة "الماكودي" في التصريف وجزء في تحريم الدخان. توفي الفكون سنة 1073هـ.

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص252.

[2] المرجع نفسه، ص295.

[3] المرجع نفسه، ص305.

8/ عصر الدّايات:

لعلّ أوْسَع حركة أدبية شَهِدها عصر الدّايات بالجزائر؛ هو عصر الدّاي التاسع المدعو: محمّد بكداش الذي تولى السلطة عام 1707م، ثمّ أزيح عنها عام 1710م (قتلا). وقد رفع الأدباء إليه قصائدهم مادحين.

كان هذا الدايُ عالِماً فقيها، مُشارِكا في عدة فنون، ماهِراً في علم اللسان، وعَنْهُ ألف محمد بن ميمون الجزائري كتابا بِعُنوان:" **التحفة المرْضية في الدّولة البَكداشية في بلاد الجزائر المحمية**". احتوى هذا الكتاب على ست عشرة مقامة، تشهد على نبوغ الجزائريين في فن المقامات، وتُسجّلُ تأثرهم بالطريقة الأندلسية في التحبير والتدبيج (حسن السبك) وهذا مقتطف من إحدى المقامات في كتاب التحفة:" صعد المنبر، ووعظ الناس فيه وحذر، يقذف لسانه لؤلؤه المكنون، ويصرف من بدائعه الأنواع والفنون، فلا يُجارَى في مِضمار إحْسان، ولا يُبارى في بلاغة وبرَاعة لسان"[1].

ويظهر أن هذا الأديب كان يُعاني من حسد العلماء، فنجدُه في المقدّمة يقول:

"على أنّ أبْناء العصر، أُبْتلوا بالحسد، ويطلقون ألسنتهم بالفحشاء في كل مرصد، ومن كانت له ملكة فليُصَنِّفْ وإلا فلْيُنْصِفْ، ولكن كما قال المجنون:

وكلٌّ يدّعي وصْلاً بليْلى * * وليْلىَ لا تُقرُّ لهم بذلك

والله ولي التوفيق فيما قصدتُ، والكافي من الخطل فيما سردتُ فعليه كان معولي، وبه حسُنَ تأويلي، لا إله إلا هو، وهو حسْبي ونِعْمَ الوكيل"[2].

بقي أن أشير إلى أن مُحقق كتاب التحفة المرضية لابن ميمون الجزائري هو العالم الجليل الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري، رحمه الله، وهو أيضاً صاحب ديوان: "كشف الستار".

إلى جانب محمد بن ميمون الجزائري، تميزت كوكبة من الشعراء، نذكر من بينهم الشاعر الكبير أحمد بن عمار الجزائري وهو من أجلاء علماء القرن 12هـ/18م في الجزائر، وكان يستمد من أصوله الأندلسية الأدب والفن، وحب الطبيعة والجمال. ومن شعره[3]:

نشدتك الرحمن يا هاجري * * عذِّبْ فؤادي بِسِوَى الهجْر

---

[1] محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية تقديم وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1972، ص121 (المقامة الثانية).

[2] المصدر نفسه، ص114.

[3] أبو القاسم سعد الله، أشعار جزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص65.

كمْ ليلة قطعْتُها حسرة * * وأنتَ في تيهك لا تدْرِي

وله في النثر رحلة حجية بعنوان: "نِحْلة اللبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب".

كان أحمد بن عمار صديقا لشاعر آخر، جمع بين وظيفة الفتوى وقول الشعر، ذاك هو أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور بابن علي، ومن شعره[1]:

إنْ أنْكروا فضْلي لِخُبْثِ طِباعِهم * * فالدُّرُّ ليس يُعَزُّ في أوْطانه

وكذلك الياقوت ما بعُدوا به * * إلا وزاد البُعْدُ في أثمانه

كان ابن عليّ أو سيدي بن علي، كما يُنادونه، يُعاني بين مكانته الاجتماعية والدينية، وبين طموحاته الشعرية، وكان مُحْتارا من ثورة هواه[2]:

لولا، وحقك؛ خُطة قُلّدتُها * * زهرتْ بها في الخافقين شُموعي

ومنابر فيها رُقّيتُ إلى العُلى * * وقد استدار بها كثيفُ جموع

لَنحوْتُ منْحى العامرِي صبابة * * ولكان من حرق الجوى مشفوعي

وتشمل هذه الفترة أسماء أخرى كيحيى بن أبي راشد، الذي قال مادحا محمد بكداش، داي الجزائر التاسع، والذي ألف فيه محمد بن ميمون مؤلفه التحفة المرضية، يقول يحيى[3]:

ملك تفرد بالكمال ولم يكن * * لكماله في السالفين مثال

ثم الشاعر أبو عبد الله محمد البونصي، مادحا محمد بكداش أيضا[4]:

بشارة خير قد أتت عقب المسا * * بفرقد سعد في السعادة قد رسا

ويظل محمد القوجيلي أبرز شعراء الجزائر خلال القرن الحادي عشر الهجري (17م)، وله وقفات نقدية كقوله[5]:

أهلَ الفصاحة غِبْتم لا فصيح يُرى * * يُجيد نظم الكلام يُذهل الفِكَرا

بكتْ لهم ولنظم الشعر باكية * * وحُقَّ أن يندب الأطلال والأثرا

مصيبة الجهل أدهى محنة نزلت * * بالمرء لما غدا قد أشبه البقرا

---

[1] أبو القاسم سعد الله، أشعار جزائرية، ص40.

[2] المرجع نفسه، ص20-21.

[3] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص312.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] أبو القاسم سعد الله، أشعار جزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص139.

وعرفت الفترة العثمانية بالجزائر فن الموشحات، وممن أجادوها محمد بن رأس العين الذي اشتهر بالمجون والهزل، وكان يُلقب بالرئيس، ويُلقب بالبليغ، ومن مطالع موشحاته[1]:

غزى فؤادي بمقلتيْه * * وصاد قلبي بقده

قصارى القول إن الأدب في ظلال الجزائر العثمانية قد تأرجح بين السطوع مرة، وبين الانتكاسة مرات، وذلك بسبب عدم التشجيع من الحكام العثمانيين، وبسبب عدم استقرار الأدباء في الجزائر، فأغلبهم إما هاجر، وإما انغمس في التصوف الخرافي الذي شكل أحد مظاهر التدهور الثقافي بالجزائر العثمانية (الدروشة وما في حقلها).

يقول أبو القاسم سعد الله بعد حديثه عن آراء" الفكون" في البدع الصوفية: "**حتى أصبح كل شيخ مجذوب يُعتبر بركة وصالحا، وكل درويش مغفل يُعتبر وليا وصاحب كرامات، وكلّ مُستغل للعامة بِاسم الدّين ومتقرب للسلطة باسم الطريقة؛ يُعتبرُ قطبا تأتيه الجبايات ويقصده الناس ... بالقرابين**"[2].

كانت هذه جولة خفيفة لرصد بعض العينات من الموروث الأدبي في الجزائر، وقد حاولت من خلال عرضها تحريك جزء من الذاكرة الجزائرية المنسية، واستدعاء أنماط تفاوتت قدراتها الإبداعية، بتفاوت بُناها المكونة وتمحورت رؤاها حول قضايا معينة تسلك مسلك الارتباط بالذات والواقع، وتشتغل على فعاليات السلطة التقليدية في الكتابة، والامتثال للأبنية النصية السلفية.

ويبقى الجزء الآخر من هذه الذاكرة المنسية مشعا بأعلام وعناوين غنية عن كل تعريف أمثال الغبريني صاحب مؤلف **عنوان الدراية**، وابن مريم صاحب **البستان** وابن هطال التلمساني صاحب **رحلة محمد الكبير**، وابن حمادوش مؤلف" **لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**" وغير هؤلاء كثير.

[1] أبو القاسم سعد الله، أشعار جزائرية، ص132.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى القرن 14، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ج1، ص139.

تُعدُّ الدولة الرستمية أول دولة استقلت عن العرب، وقد شيّدها أبناؤها من قبيلة لماية الأمازيغية في تاريخ مبكّر، فحملت مشعل العلم والحضارة في المغرب الأوسط فكانت تنافس القيروان من حيث الأهمية، فبلغت بذلك حياة فكرية ثقافية لا مثيل لها.

يعود تأسيس هذه الدولة إلى عبد الرحمن بن رستم الذي ينتمي في نسبه إلى بني رستم، وهي سلالة فارسية حكمت الدولة على مدار 136 سنة بمدينة تاهرت، وكان يتبع المذهب الإباضي، وينسب المؤرخون تاريخ المذهب الإباضي في شمال إفريقيا إلى أواخر العهد الأموي وبداية العباسي، حيث كان دعاة وعلماء التيار المذهبي يتوجهون إلى شمال إفريقيا لنشر فكرهم فيه، بحيث انتشرت الدعوة الإباضية في جبل نفوسة غرب ليبيا وبعض مناطق المغرب الأقصى؛ لتنشأ الدولة الرستميّة في ذلك الوقت.

اهتمت الدولة الرستميّة بالتعليم، وكان جلّ ما يتداولونه من علم لا يخرج عن إطار الدين والعبادات ولقد أقاموا حلقات طلب العلم الشرعي، حيث أقيمت هذه الحلقات العلمية في المساجد لتدريس القرآن والفقه والتفسير على فهم المذهب الإباضي.

وقد استعانوا أيضا بالأدب وبخاصة الثر لنشر مذهبهم؛ فقد كان لهم منه حظاً وافراً تمثّل في الخطب والوصايا والرسائل.

دعا أئمة الدولة الرستمية رعيتهم إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية، وقد يطلبون إليهم في بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولاتهم، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حين ولّى على تاهرت في غيبته عنها السمح بن أبي الخطاب نائبا عنه، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها، وخطبهم قائلا:" **قد علمتم –معشر المسلمين– أنّ السمح وزيري، وأخص النّاس بي، وأحبهم إليّ، وأنصحهم لدولتي، وأنّي لا أصبر على فراقه، وقد آثرتكم على نفسي، تتميما لرغبتكم، وها أنذا قد وليته عليكم، فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين، ولم يحد عن حادّة العدل والانصاف، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرّب أو بمخالفتنا**"[1].

[1] رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص69.

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع، ولا لألوان البديع، وهو بلغة جزلة مقبولة كلغة الخطب في الصدر الإسلامي الأوّل، وعلى شاكلة هذه الخطبة كانت الوصايا في أيام هذه الدولة كوصية عبد الله اللّواتي وزير أفلح بن عبد الوهاب، وهي تطرد على هذه الصورة:" **إنّي موصيكم إخواني، ونفسي بتقوى الله العظيم في السر والإعلان، وباتباع آثار دعوة المسلمين، فإنّ الاتباع أولى من الابتداع، وعليكم بالإئتمار لما أمر الله به من طاعته، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته، فاقتفوا آثار المسلمين فإنّ الله أوعد بالنّار من خالفهم، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله، إذ قال تبارك وتعالى" ومَنْ يُشاقق الرسولَ من بعد ما تبين له الهدى ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولّى ونُصله جهنّم وساءت مصيرا". فاتقوا الله إخواني، واحذروا مخالفة آثار أئمتكم في القليل والجليل...وعليكم بالحذر من الانهماك في الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك، وغضب منه: أمنهمكون أنتم فيها (الدنيا) بعدما جئتكم بها (الرسالة) بيضاء نقية حنيفية سمحة سهلة"**[1].

وهو يوصي بالتقوى، واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية، فإن الاتباع كما يقول أولى من الابتداع، ولغته رصينة قوية، يحتج بالقرآن والحديث النبوي ملوحا بهما من بعيد على صحة معتقده.

ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبي اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب وجّهها إلى جميع رعاياه في تاهرت وجبل نفوسة، وفيها يقول:" **إنّ أفضل ما تتواصى به العباد ويتحاضّون عليه تقوى الله، ولزوم طاعته، والزّجر عن معصيته، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح.وعليكم معاشر المسلمين بالتهيئ للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار، وتتغير فيه الألوان، ويشيب فيه الولدان، و" تذهل كلّ مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد"، واعلموا –رحمكم الله– أنّ أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا، وقلّت الخلوف منهم، فرحم الله امرءا مسلما احتسب نفسه، وأرصدها لله في طلب العلم والنقض على من ضادّ الله، وعدل عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلّم، حتى تكون**

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان)، دار المعارف، القاهرة، ط1، (د، ت)، ص222.

كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلّم هي العليا والباطل زهوقا، وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم، فاقتفوا آثارهم، واهتدوا بهداهم، واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجهم"[1].

وواضح أنّ الإمام أبا اليقظان محمد بن أفلح يدعو في عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية أن يرصدوا أنفسهم ويحتسبوها للدفاع عنها ضد خصومها الذين عدلوا في رأيه عن منهاج رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من مبادئ آمنوا بها مخالفين الجماعة.

ولابنه لأبي حاتم يوسف عظة بديعة كان يخطب بها الخوارج الإباضية في عهده أيام الجمعة، وفيها يقول:" **الحمد لله الذي ابتدأ الخلق بنعمائه، وتغمدهم جميعا بحسن بلائه، لا يشتمل عليه زمان، ولا يحيط به مكان، خلق الأماكن والأزمان " ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين"، فقدرها أحسن تقدير، واخترها من غير نظير، لم يرفعها بأعمدة تدرك بالمعاينة، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة، وزيّنها للناظرين، وجعل فيها رجوما للشياطين (فتبارك الله أحسن الخالقين) جعل القرآن إماما للمتقين، وهدى للمؤمنين، وملجأ للمتنازعين، وحكما بين المتخالفين، ودعا أولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله، وأمرهم عند التنازع في تأويله بالرجوع على قول رسوله، فقال الله عزّ وجلّ " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم"**[2].

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث في كتابة النثر الأدبي، فقد بدأ بسيطا عند الإمام أبي اليقظان محمد بن أفلح، واتسع هذا الرقي عند ابنه الإمام أبي حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب، بل أيضا من حيث ما يشيع فيها من السجع، ومن التوازن في العبارات والمقابلات الدقيقة.

[1] سليمان باشا الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، دار الحكمة، لندن، ط1، 2005، ص240.

[2] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص224.

وتمضي بجاية وشرقي الجزائر في عصر الحماديين بالعناية في الخطابة، وتردد في الكتب أسماء خطباء في الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة، ولكن الكتب لا تحتفظ حتى بشظايا من خطبهم، سوى أن يقال مثلا إنّ فلانا ولى خطابة الجامع الأعظم ببجاية مثلا، وكان فصيح القلم واللسان، ويكتفون بذلك دون أن يذكروا شيئا من خطبه الفصيحة أو البليغة.

ذكر يحي بن خلدون في كتابه بغية الرواد عندما تحدث عن ملوك الدولة الزيانية طائفة من مشاهير خطباء تلمسان ووعاظها مثل أبي عبد الله محمد بن أحمد الحجام المتوفى سنة 614هـ، ويسميه يحي بن خلدون في البغية: واعظ أهل زمانه، ويذكر له كتابا في الوعظ اسمه "**حجة الحافظين ومحجة الواعظين**"، ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكرهم صاحب البغية **عبد الرحيم بن أبي الخزرجي**، كان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه، وكان يعاصره **أبو محمد عبد الله المجاصي** المتوفى سنة 641هـ، كان كثير البكاء في وعظه حتى اشتهر بذلك، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه، وكان له مواعظ قيمة. ومن الوعاظ بعده **سعيد العقباني** المتوفى سنة 811هـ خطيب الجامع الأعظم بتلمسان[1].

ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأنّ منهم من كانت تقشعر من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة، وكأنه يرى الجحيم تحت بصره، ومنهم من كان يبكي سامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره، ومع ذلك لم تحفظ العصور السالفة بشظايا، ولو قليلة، من خطبهم ومواعظهم.

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم، ولا من شيوخ تلمسان لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حمّو موسى الثاني ابنه أبا تاشفين وسمّاها" **واسطة السلوك في سياسة الملوك**".

وضع الكتاب سنة 765هـ، يخاطب فيه ابنه واعظا إياه، يدعوه إلى التمسك بحميد الخلق وأنبل الصفات، إذ يقول:" ...**وقد وضعنا لك بنيّ هذا الكتاب وجمعنا لك ما يصلح لك بين أمور الدنيا والآخرة...وبعد حفظك لكتابنا هذا واتباعك للأمور الشرعية والسياسة الدنيوية فتكون عمدتك كلّها التوكل في جميع أمورك على الله تعالى والتفويض له**"[2].

هذا ويعد" واسطة السلوك" كتابا سياسيا ضمنه الحوادث التي وقعت له في سنوات حكمه، وصراعه مع المرينيين، والسياسة التي يجب اتباعها من طرف الملوك، والصفات الواجب التحلي بها،

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص225.

[2] حاجيات عبد الحميد، أبو حمّو موسى الزياني، حياه وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص69-71.

وهو ذو طابع أخلاقي وتربوي، ويحمل نظرية سياسية ورؤيا جديدة في الحكم تتمثل في تأديب الفرد من أجل تأديب الجماعة.

وينقسم إلى ثلاثة أبواب:

– **الباب الأوّل**: يحتوي على نصائح عامة منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وملازمة أهل العلم والتقوى، والعناية بالجيوش وإقامة العدل في صورة شعر ونثر محمكين.
– **الباب الثاني**: في أركان الملك وقواعده الأربعة (العقل والسياسة والعدل والاعتناء بجمع المال).
– **الباب الثالث**: أوصاف الحاكم من شجاعة وكرم، ويتضمن دراسة نفسية لأحوال الناس.
وفي الخاتمة يتجه إلى ابنه بالنصح والإرشاد ويحثه على العمل القويم.

ونقتطف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة في الحروب؛ إذ يقول:" **يا بنيّ إذا كان الملك شجاعا، كان منصورا مطاعا، ترهبه الأعداء، وتطمئن إليه الأولياء، يعتدّ به جيشه في مواقع الحروب، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب، وإذا اقتحمت القتال، واختلطت الأبطال بالأبطال، فغايتك أن تكون حاكما على نفسك، صابرا ثابتا في جأشك[1]، ناظرا إلى ساقتك التي هي قلب جيشك، فلتزم بها الثبات، ولا تتزحزح إلى جهة من الجهات، ولتشد بثباتك الأنجاد[2] والحماة والمقاتلين الكماة[3]، وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به، ولا تنتقل بسببه، فإنّ انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر، والصبر في مثل عائد عليك بما يسر، لأنه إذا كانت رايات القلب تخفق، وطبوله تزأر كان ذلك حصنا للجناحين، وأمانا للعسكر من الحين[4]، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين**"[5].

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت في قلب جيشه، وإذا رأى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر، حتى لا يتشوش الموقف، ويظن أنه منهزم، وحتى لو انكسر

[1] قلبك.
[2] جمع نجد: الشجاع.
[3] المقدام المسلح.
[4] الهلاك.
[5] أبو حمّو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية، تونس، (د، ط)، 1862، ص129.

الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة، ويكتب للجيش النصر، ويوصي ابنه أن تظل رايات الجيش في قلبه تخفق، وطبوله تزأر ليكون قدوة لقواد الجناحين، ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة، ويستمر أبو حمو موضحا لابنه أنّ الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأي السديد، أمّا بدونه فتكون مذمومة، بل قد تصبح تهورا يؤدي إلى الهلاك وإلى زوال الملك.

يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعا محكما، وهي شهادة قوية بأن النثر الأدبي رقي بالجزائر في القرن الثامن للهجرة، بحيث أصبح الكاتب يفكر في جرس كلامه الذي يخلب به سامعه، وأيضا ليس ذلك فحسب، فإنّ الكاتب يلائم بين الكلمات في السياق بحيث يأتي مع الكلمة بشقيقتها ورفيقتها التي يحسن أن تصاحبها، والتي تؤلف منها لونا من التجانس أو الجناس حتى يروق السامع أو القارئ، ويجذبه إليه.

وإذا مضينا إلى العهد العثماني سمعنا عن خطباء كانوا بارعين في الوعظ، وكان الناس يجتمعون لهم في خطبة الجمعة، وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ، وقد أشاد الكاتب محمد بن ميمون في القرن الحادي عشر للهجرة بخطابة الشيخ **مصطفى بن عبد الله البوني** قائلا:" **له في الخطب الساعد المشتد، والالقاء الذي تميل إليه الهوادي وتمتد، والسكينة التي تجذب إليها الأبصار فلا ترتد، ولم أر منذ علقت سني، وعلقت خطابته بذهني أحق منه في طريقة الوعظ، والخطابة والإمامة ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامي لا جرم أنه استحوذ عليها، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبابها...وكذلك هو في وعظه آية من آيات فاطره، زعم من رآه أنه لم يسمع من حرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه"**[1].

وهذا الخطيب الممتاز الذي ليس له نظير في وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى لم يؤثر عنه شيء من خطابته، فما بالنا بمن لا يبلغون مبلغه من روعة الخطابة، ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضاعوا تراثا مهما من مواعظ أدبية لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرج للأدب الجزائري تاريخا أكثر دقة.

إنّ المتتبع للفترة العثمانية بالجزائر، يجد قلّة الكتابات التاريخية المتعلّقة بهذه الفترة، على الرّغم من طول مدتها وغناها بالأحداث التاريخية والسياسية الهامة، حيث يقول فارس كعوان:" في اعتقادنا أنّ

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 2/ 213.

ذلك يرجع إلى عدد من العوامل أبرزها قلّة الاهتمام بالتاريخ من كتّاب ذلك العصر وعدم اعتناء غالبية الحكام الأتراك بتشجيع الكتاب على التدوين التاريخي"[1].

ويعود هذا إمّا لكون غالبيتهم ممّن لا يفهمون العربية أو لكونهم من العسكر، ومن ثمة فهم لا يقدرون قيمة الكتابات التاريخية؛ فقد انصب اهتمامهم على الحياة السياسية والعسكرية ممّا انعكس على الواقع الثقافي والأدبي، وهذا ما جعل الكتّاب يطلقون على هذا العصر بالضعف والركاكة.

[1] ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، من تقييدات ابن المفتي حول باشوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة، العلمة، ط1، 2009، ص6.

لقد تقاسم النثر الفني في العصور القديمة جنسان أدبيان هما: الخطب والرسائل؛ فإذا ما ذكر، انصرفت الأذهان إليهما دون غيرهما نظرا لما يتميزان به من حضور متميز، وما يتبوآنه من منزلة رفيعة بين أجناس الأدب وفنونه؛ هذا بالإضافة إلى ما اضطلعا به من أدوار ووظائف في الحياة الأدبية والاجتماعية والدينية والسياسية والإدارية.

وهكذا يندرج ضمن هذا النثر الفني ما يصطلح عليه بـ"أدب الرسائل" الذي يشكل جنسا أدبيا قائما بذاته، إذ تنضوي تحته هو الآخر أنواع من الرسائل المختلفة أسلوبا وموضوعا، والمتنوعة غرضا ومقصدا، والمتفاوتة جمالا وتأثيرا. هذا فضلا عما راكمه " أدب الرسائل"، عبر مراحل تطوره، من قواعد و معايير و خصائص؛ و من ثم أصبحت الرسالة" صناعة ذات قواعد وأصول"[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن التساؤل حول مفهوم "أدب الرسائل" يظل ملحا؛ كما أن البحث في هذا الأدب أو ما يسمى عموما بجنس الرسالة سيكون له ما يبرره علميا ومنهجيا.

ينظر، إذن، إلى "أدب الرسائل" باعتباره " ذلك اللون الأدبي الذي يشمل جميع موضوعات الرسائل النثرية الفنية المتبادلة بين الناس"[2]. ورغم ما يكتنف بعض المصطلحات الواردة في هذا التعريف من غموض والتباس، فإنه يتضمن مجموعة من الإشارات المهمة الدالة على طبيعة هذا الجنس الأدبي ومنها:

- إن "أدب الرسائل" يشكل لونا أدبيا.
- إن هذا اللون الأدبي يضم أنواعا من الرسائل التي يشترط فيها أن تكون نثرية و فنية.
- إن التعريف يشير إلى جانب مهم من جوانب الرسالة، وهو الجانب التداولي لما له من أهمية في هذا الإطار.

من هنا يمكن النظر إلى "أدب الرسائل" بوصفه الفن النثري الذي اتخذ من الرسالة وسيلته في التعبير والتواصل؛ وتصبح الرسالة بالتالي " لونا من ألوان النثر الفني الجميل وضربا من ضروبه"[3].

---

[1] مصطفى الزباخ، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين، الدار العلمية للكتاب الدار البيضاء، الدار العلمية للطباعة والنشر بيروت، (د، ط) ، (د، ت)، ص 158.

[2] فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، ط1 ، 1989، ص 87.

[3] المصدر نفسه، ص 83.

تتضمن الرسالة، لغة، معنى التوجيه؛ ففي لسان العرب:" والإرسال: التوجيه، و قد أرسل إليهم، والاسم الرِّسالة و الرَّسالة و الرسول والرسيل "[1].

ويؤكد الفيروز آبادي نفس المعنى فيقول:" والإرسال التسليط والإطلاق و الإهمال والتوجيه والاسم الرسالة بالكسر والفتح "[2].

وفي كتاب كشاف اصطلاحات الفنون يقول التهانوي عن الرسالة:" الرسالة في الأصل الكلام الذي أرسل إلى الغير وخصت في اصطلاح العلماء بالكلام المشتمل على قواعد علمية والفرق بينها وبين الكتاب على ما هو المشهور إنما بحسب الكمال والنقصان فالكتاب هو الكامل في الفن والرسالة غير الكامل فيه "[3].

للرسالة، إذن، معنيان: أصلي واصطلاحي؛ الأول يستفاد منه أن الرسالة هي الكلام أو الخطاب الذي يوجه إلى الغير. أمّا من حيث المعنى الاصطلاحي، فالرسالة تصبح دالة على البحوث أو الدراسات العلمية التي تتناول قضايا محددة في اللغة، أو الأدب، أو الفقه، أو الفلسفة، أو غيرها من المجالات.

وممن أكدوا على المعنى الأصلي لـ"الرسالة"، ابن وهب الكاتب الذي يقول: " والاسم الرسالة، أو راسل يراسل مراسلة فهو مراسل... وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يراسل به من بعيد "[4].

إن هذا التعريف يعضد ما ذهب إليه التهانوي؛ غير أن ابن وهب يحدد دواعي التراسل وظروفها في أمرين هما: البعد والغياب.

ومعنى هذا أن للرسالة في الأدب والفكر العربيين دلالات ثلاثا: دينية شرعية، وعلمية، وأدبية[5]. غير أننا سنركز على دلالاتها الأدبية والتداولية؛ وفي هذا الإطار يقول صاحب (صبح الأعشى) عن الرسائل:" وهي جمع رسالة، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب: من حكاية حال من عدو أو صيد، أو

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ص 283.

[2] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر بيروت، ط1، 2003، ص 905.

[3] محمد علي بن علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار صادر بيروت، (د، ط)، (د، ت)، ج2، ص 584.

[4] ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 152.

[5] رسائل أبي الحسن بن مسعود اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، ط1، 1981، ص 11.

مدح أو تقريض، أو مفاخرة بين شيئين... وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبرا فيها بصورة الحال"[1].

إن الرسالة في هذا النص، تحتمل معاني كثيرة تتراوح بين الدلالة على "المبحث" أو "المقالة" العلمية أو الأدبية بالمفهوم القديم (ولقد أشرنا إلى ذلك سابقا)؛ والدلالة على الخطاب الذي يوجه إلى شخص بعينه. ورغم ذلك، فإن الكاتب حاول أن يجعل تعريفه شاملا لمعظم عناصر الرسالة وهي:

أ ـ المرسل، أي صاحب الرسالة الذي سماه القلقشندي بـ (الكاتب والأديب المنشئ).

ب ـ الرسالة، والتي تتناول غرضا أو موضوعا معينا (عدو، صيد ، مدح...).

ج ـ المتلقي، إذ (ربما كتب بها إلى غيره).

د ـ هذا فضلا عن تحديد دوافع وأسباب الكتابة (مخبرا فيها بصورة الحال).

والملاحظ أن كتابة الرسائل أصبحت صناعة أو فنا يتطلب من الكاتب المنشئ الدراية والمران حتى يبرع فيها، علما بأن مثل هذه الكتابة قد أصبحت ذلك" الجسر الذي يصل الشخص إلى أرفع المناصب"[2].

ومن أجل تحقيق ذلك، وضع مجموعة من الكتاب القدامى المتمرسين شروطا وقواعد يجب على كتاب الرسائل الالتزام بها؛ يقول ابن عبد ربه في عقده الفريد:" فإن حاولت صنعة رسالة فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت، وعاير الكلمة بمعيارها إذا سنحت"[3]. فأول ما ينبغي أن يحرص عليه كاتب الرسالة، العناية بالألفاظ والكلمات التي يجب أن تكون مطابقة لموازينها ومعاييرها.

إن كاتب الرسالة مطالب، فضلا عما سبق، بإعادة النظر في رسائله، وتنقيحها وتصحيحها؛ يقول ابن وهب الكاتب:" فأما الرسائل فالإنسان في فسحة من تمكينها، وتكرار النظر فيها، وإصلاح خلل إن وقع في شيء منها"[4].

إضافة إلى هذا يلح بعض الكتاب على صنف آخر من الشروط، لكونهم يعتبرونها من أركان الرسالة؛ وهذا ما يمكن استخلاصه من الرسالة التي بعث بها القاضي أبو خليفة الفضل بن حباب

[1] أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب السلطانية، (د، ط)، 1919،ج 14، ص 138.

[2] شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 78.

[3] عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص 186.

[4] ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 151

الجمحي إلى الصولي، يقول فيها:" وصل كتابك ـ أعزك الله ـ مبهم الأوان، مظلم المكان، فأدى خيرا ما القرب فيه بأولى من البعد؛ فإذا كتبت ـ أكرمك الله تعالى! ـ فلتكن كتبك مرسومة بتاريخ؛ لأعرف أدنى آثارك، وأقرب أخبارك، إن شاء الله تعالى"[1].

إن القاضي أبا خليفة يثير انتباه الصولي إلى قضية لها أهميتها في كتابة الرسائل، وتتمثل في ضرورة تضمين الرسالة تاريخ كتابتها ومكانها حتى لا تكون كتابا "مبهم الأوان، مظلم المكان"؛ إذ من شأن ذلك أن يساعد المتلقي على ضبط ما ورد في الرسالة من أخبار وآثار.

وكيفما كان الحال، فإن الرسالة تفرعت إلى أنواع ثلاثة كبرى هي:

ـ الرسالة الديوانية.

ـ الرسالة الإخوانية.

ـ الرسالة الأدبية.

وهكذا، فإذا كانت الرسائل الديوانية ـ التي يسميها بعضهم بالرسائل السياسية أو السلطانية أو الرسمية[2] تعالج شؤون الإدارة[3]، فإن الرسائل الإخوانية تصور عواطف الناس ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرهبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية[4]، أما الرسائل الأدبية فهي التي كانت" تعنى بالكتابة في موضوع محدد، مما نسميه اليوم باسم المقالات"[5].

إن الرسالة بأنواعها وأصنافها المختلفة تستمد أهميتها وقيمتها من أمرين اثنين هما: الخصائص والوظائف. وإذا كان الجانب الكمي (ومن ذلك كثرة الأنواع وتعددها)، يشهد على مدى حضور وانتشار هذا الجنس الأدبي، فإن الجوانب النوعية تعد دليلا على مدى تطوره وارتقائه. لهذا يصبح من الواجب إيلاء الجوانب الفنية في الرسالة عناية خاصة.

---

[1] أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ضبط وشرح زكي مبارك، دار الجيل بيروت، ط4، 1972، ج 3 . 4، ص 882.

[2] صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، ص 58.

[3] فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص 111.

[4] شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط3، (د، ت)، ص 562.

[5] شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 442.

وتحقيقا لذلك نشير إلى أن" الكتابة الفنية بدأت مع الرسائل، ثم خطت أهم خطواتها مع الكتابة الديوانية، ومع وجود الكاتب المثقف المتخصص"[1]. ومعنى هذا أن الكتابة النثرية لم تصبح كتابة فنية إلا بعد إنشاء الدواوين، وإسناد مهمة الكتابة فيها إلى الكتاب المتخصصين الذين تفرغوا لكتابة الرسائل فبرعوا فيها وأجادوا.

1- فن الترسل في العهد الرستمي:

خرجت الدولة الرستمية (160هـ، 299هـ) عن السلطة المركزية العباسية بالمشرق على يد عبد الرحمن بن رستم أول مؤسس للدولة الإسلامية الجزائرية المستقلة" ازدهرت هذه الدولة، وقد أصبحت تيهرت العاصمة العالمية للمذهب الخارجي يؤمها الخوارج من جميع الأرجاء، فأصبحت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي بغداد وقرطبة، فعرف إذن الجزائريون الثقافة ونبغوا في مناخها منذ عهد سحيق وخصوصا الثقافة الدينية"[2].

مكنت الدولة الرستمية اللغة العربية من الانتشار وجلبت من المشرق الكتب إلى مكتبة تيهرت "المعصومة" حتى تغرس القوة الروحية للحركة الخارجية التي أساسها المشرق "إن هذه الدولة بحكم خارجية مذهبها وقيام نزعتها على الجدال الشديد والحوار العنيف كانت مضطرة إلى اصطناع اللسان والعقل لإقناع الخصم الألداء، وطمأنة الأشياع الأحباء، ومثل هذا السلوك الفكري لا يجوز له أن ينفصل عن حركية الإبداع وتبلور الخصب الفكري"[3].

وبالعودة إلى كتب التاريخ التي أرخت لهذه المرحلة نجد المؤرخون يؤكدون تكاثر الشعراء في الدولة الرستمية وازدهار العلم على عهدها، وهو لا يتماشى مع ما وصل إلينا من مادة أدبية تخص هذه المرحلة من عمر الجزائر القديمة، فتراث هذه المرحلة الثقافي لا يزال مجهولا إلى الآن مرد ذلكإلى أسباب عدة، فربما أشعار هذه الفترة معظمها لم يدون، أو أنها دوّنت وأحرقت المخطوطات في أثناء الحروب لكن الأكيد هو ضياع الكثير من الحقائق التاريخية نتيجة الصراعات السياسية، وعليه تأتي ندرة المصادر وضآلة المادة التي تشمل الأدب الجزائري القديم في طليعة المثبّطات التي تعترض سبيل

[1] في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، دار الثقافة الدار البيضاء، ط6،1981، ص 151.

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص273.

[3] عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم –دراسة في الجذور–، دار هومة الجزائر، 2009، ص43.

الباحث، وعلى الرغم من ندرة التوثيق فقد ذكرت المصادر العربية القديمة الموسوعية طائفة منها وهذا يقوم دليلا قاطعا على وجودها.

وتتّفق تلك المصادر على أن الشاعر بكر بن حماد هو أقوى الممثلين للمرحلة التي نعاينها بحكم أنه أقوى الشعراء نسجا وأكثرهم تلقيا، حيث احتضنت لنا كتب التاريخ والتراجم والأدب بالعديد من قصائده ومقطوعاته، ويقف هذا الموروث شامخا ليسد الفراغ الأدبي الناتج عن ضياع نتاجات أخرى في زمن المحن والحروب.

مع استقرار الدولة الإسلامية وثبات أركانها حقّق فن الترسل حضوره النوعي الجمالي، حيث تمّ تطوير أدواته، وأنشئ "ديوان خاص للرسائل يقوم عليه كتّاب بأعيانهم، ثم تنتشر الظاهرة فيصبح للولاة أنفسهم دواوين للرسائل عليها كتاب مختصّون"[1]، ممّا ساهم في "تبلور الرسائل فنا أدبيا راقيا، تغيّرت معه اساليب النّظر للكتابة والكتّاب، مثلما تغيّرت منزلتهم وهم يقتربون من الخلفاء والأمراء وأولى الأمر"[2].

والرسالة "من أكثر فنون الأدب تعبيرا عن الخاص، وأوضحها في كشف الذاتي وإضاءة كوامنه وهي بحسب تعبير ابن حزم وجه من وجوه اللذة التي تتعدّد بتعدّد وجوه المراسلة"[3]. إنّ الذات المرسلة هي أوّل من يواجه الرسالة بما يعتمل في دواخلها (الذات) من مطامح أو رغبات أو مخاوف، ثمّ "تمرّ الرسالة بمراحل يتغيّر فيها المرسل إليه بتغيّر آلية الإرسال وزمنيته"[4].

ينتمي فن الترسل لفضاء الثّقافة العام وهو يستجيب في فاعلية إنتاجه لأنظمة التعامل ويحافظ على أخلاقياتها، تهيئ الرسالة " إمكانية اللغة وقابليتها البلاغية ما يضيء رغبة صاحبها في استجابته للأنظمة والأعراف التي يعتمدها الترسل في زمان ومكان معينين"[5]. ومثلما تكشف الرسالة صورة بيّنة عن مرسلها فإنّها تحافظ في مهمتها الاتصالية على صورة متلقيها "حيث تختلف وتتغير شفراتها

[1] عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية، وزارة الأعلام، بغداد، 1972، ص13.

[2] لؤي حمزة عباس، بلاغة التزوير (فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم)، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1، 2010، ص19.

[3] المصدر نفسه، ص 16.

[4] المصدر نفسه، ص16.

[5] المصدر نفسه، ص16.

السوسيو ثقافية واللّسانية باختلاف منزلة المتراسلين ومكانتهم في إشارة صريحة منها لارتباطها بأنظمة الثقافة وآلياتها"[1].

لقد أولى إذن فضاء الثقافة الإسلامي عناية بالرسائل واهتم اهتماما بالغا بأساليب أدائها وأحاط حاملها بعناية فائقة لأنّه هو من يمثل قناة التواصل بين المتراسلين فقوة تأثير الرسالة تستمدّ من تأثير قوة حاملها، فكثيرا ما كان الرسول يضطر للإفهام عن مضمون الرسالة التي يحملها مسهما في إضاءة أهدافها، وفي ذلك تكافؤ نسبيّ بين المرسل، الحامل والمحمول إذن "يرتفع الرسول في الدلالة إلى ما تدّل عليه الرسالة نفسها من جهة الاختيار والتكليف فدقة اختيار اللفظ وقدرة هذا الرسول على إنجاز ما كلف به على أحسن وجه"[2].

يندرج الرسول ضمن المجالين الموضوعي والاجتماعي للرسالة منسجما مع ملابساتها ويتحوّل إلى عنصر فاعل في مجاليها "مثلما يعدّ علامة منتظمة ضمن السياق الثقافي لعلامتها وإن كانت الصفات المطلوبة لكل رسول وهي إنما تشتق من مجال الرسالة نفسه، وتعبّر عن موضوعها"[3].

أشرنا في ما سبق أن الأدب الرستمي إنّما ينبغي أن "يقاس على مقاس ذلك الزمن في ذلك المكان الذي كان حديث العهد بنور الحضارة العربية الإسلامية"[4]، وعلى قلّة المادة النثرية التي وصلتنا على هذا العهد، فإنّ ما عثرنا عليه من رسائل مبثوثة في المصادر القديمة يدل على أنّ هذا النوع من النثر كان متداولا مألوفا وقلّة وصوله إلينا لا يعنى بالضرورة عدم وجوده، إنّما مرد ذلك على النحو الذي وضحنا سلفا إلى عدم توثيقه كما هو الشأن في البدايات الأولى لكل ما هو قديم.

يرتبط النثر على هذا العهد في أغلبه بحكام الدولة الرستمية أنفسهم، وإذا اقتربنا من العلاقات الرسائلية نجدها تعكس لونا من ألوان التمدن، مثلما تعكس قدرة العصر البلاغية، تمّ استثمارها في دعم المشروع الإيديولوجي الذي عليه نهضت الدولة الرستمية في تيهرت مما يهيئنا إلى أن نعدّل نظرتنا

[1] لؤي حمزة عباس، بلاغة التزوير (فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم)، ص15.

[2] أبو يوسف عبد الله القرطبي، بهجة المجالس وشحذ الذهن والهاجس، تح: محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف، (د، ت)، ص27.

[3] لؤي حمزة عباس، بلاغة التزوير، 21.

[4] عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، ص47.

إزاء الحياة الثقافية والفكرية للمجتمع الجزائري آنذاك "فالعلاقات الرسائلية ليست علاقات أدبية فحسب، بل هي علاقات تبادل معرفي وتعدّد ثقافي في شتى مجالات الحياة الفردية والجماعية"[1].

جمع لنا سليمان الباروني في كتابه الأزهار الرياضية بعضا من الرسائل التي صدرت عن أئمتها، هذه الرسائل تعد جزءا من التاريخ لأنّها تسرد تفاصيل تاريخية معينة.

فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب كتب بها إلى أهل طرابلس وكانوا يوالونه، وكان واليه السمح بن أبي الخطاب توفي، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه، فكتب إليهم الرسالة الآتية: " أما بعد فإني آمركم بتقوى الله، والاتباع لما أمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه، وقد بلغني ما كتبتم إليّ به من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس "خلفا" له وردّ أهل الخير ذلك، فإن من ولّى "خلفا" من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمح على عمالته التي ولى عليها إلا خلف بن السمح، فحتى يأتيه أمري، وتوبوا إلى بارئكم، وراجعوا التوبة، لعلكم تفلحون"[2].

والرسالة مع إيجازها تؤدي الغاية المطلوبة، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين ويسميهم المسلمين، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمح بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعُرفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال، ويطلب إليهم التوبة مما وقعوا فيه من إثم، وكان عهد ابنه أفلح طويلا، وخرج عليه بعض الثوار، منهم نُفاث بن نصر من جبل نفوسة إذ كان يطعن في إمامته ويكثر من نقده، فتبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة الآتية" أما بعد فالحمد لله المنعم علينا، المحسن إلينا، الذي بنعمته تتم الصالحات، ويهتدي مهتد إلا بعونه وتوفيقه، فله المنة علينا، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين، وأئمتنا المهتدين..قد كتبت إليك غير كتاب، أنصح لك فيه، وأدعوك إلى رشدك، وفي كل ذلك لا يبلغني من عمّالنا فيك إلا ما أكره، ولا أرضاء لك في دين ولا دنيا، حتى حررت كتابا منشورا إلى عمالنا، أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين، وابتدع غير طريقتهم، وسار بغير سيرتهم..فكتبت إليّ كتابا كأنك تسخط ذلك. أترى أني أؤازر من ابتدع في ديننا؟ ما كنت بالذي يفعل ذلك، ولا أؤازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى. ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا

[1] صالح بن رمضان، المتكلم في المراسلات السردية القديمة، دار محمد عليللنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2011، ص32.
[2] الشماخي، السير، ص 180.

بالبراءة منك ومقصى من جماعتنا، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا..فهو محقوق بالبراءة منه ومقصى من جماعة المسلمين، فإن تكن أنت منهم فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك، وأحللت بنفسك ما لابد أن نفعله بك وبغيرك، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء منه، وكذِّب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها...وإني غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نحبّه، فننزلك من أنفسنا بحيث تحب، والله المستعان"[1].

وأفلح متمكن من لغته بأروع مما تمكن أبوه عبد الوهاب، إذ هي في يده سلسة القيادة، وهو يصرِّفها كما يشاء، ويجعل الله هو الذي اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفاث عليه خروجا على طاعة الله وعصيانا لمشيئته وإرادته، وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية، مما يدل على حنكته السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والتقريب مفتوحا على مصاريعه حتى يدخل إليه نفاث منه راضيا إذ ينزل منه بحيث الود والحب، ولأفلح رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة" الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأكرمنا بمحمد عليه السلام، وأبقانا بعد تناسخ الأمم، حتى أخرجنا في الأمة المكرّمة التي جعلها الله أمة وسطا شاهدة لنبيّنا بالتبليغ، ومصدّقة لجميع الأنبياء، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام منّا من الله ورحمته، وأرسل إلينا نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى، ووعده بالنصر على الأعداء، وضمن له الفلاح والغلبة، ووعده بالعصمة، قال الله عز وجلّ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ فأدى-عليه السلام- ما أمره الله به، ونصح لأمته، ودعا إلى سبيل ربّه، وجاهد عدوّه، وغلظ على الكفار، ولان للمؤمنين، فكان لهم —كما وصفه الله- رؤوفا رحيما، حتى انقضت مدته، وفنيت أيامه، واختار له ربّه ما عنده، فقبضه محمود السّعي مشكور العمل صلى الله عليه وسلم، فلم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها، وأمر باجتنابها، رحمة من الله بعباده، فله الحمد على ذلك كثيرا. ثمّ أمر تعالى بالجهاد في سبيله والقيام بحقه، والأخذ بأمره، والانتهاء عما نهى عنه، وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف، والقيام مع المظلوم، والقمع للظالمين، لكي لا تقوم للشيطان دعوة، ولا تثبت لأهل حزبه قدم، ولا ينفذ لهم

[1] الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص195.

حكم، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عماد الدين وإعزازه، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة له تعالى. فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه، وتقربّوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب"[1].

يقول أفلح في عظته إنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم بلّغ الرسالة كما أمره ربه على خير وجه فبين لأمته الأوامر والنواهي الإلهية وجاهد الكفار، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمته وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقمع الظالمين، ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب.

تتميز الرسائل في العهد الرستمي بطابع سياسي، فهي رسائل ديوانية، تتناول شؤون الدولة، وسياسة الحكم في ذلك العصر، تحتكم إلى قواعد الكتابة الإنشائية المعروفة في الأدب العربي وتلتزم ببنية وهيكلة الرسائل كما نظّر لها النقاد القدامى.

أ/ موضوعاته:

لا شك أنّ فترة بني رستم شهدت ازدهار فن الكتابة، ذلك أنّها كانت دولة فتية وفي حاجة ماسة إلى بسط سلطانها على الأقاليم والولايات التي تحت قبضتها، ولم يكن من وسيلة للاتصال في ذلك الزمان غير الرسائل بما تحمله من تعليمات وأوامر لولاة تلك المناطق، فقد كانت الرسائل بمثابة المراسيم والتعليمات الرسمية التي تصدر عن السلطة الحاكمة، لكن تلك الرسائل المفترض أنها تُبودلت بين أئمة الدولة الرستمية وولاتها، لم يبق منها إلا النزر القليل بعد أن عاثت فيها يد البشر فسادا.

تناولت الرسائل الديوانية الموضوعات التي تهم شؤون الدولة الرستمية، وما كان يجري فيها، فبعضها تكلم عن الفتن التي حدثت في ذلك الوقت مثل رسائل الإمام أفلح في شأن نفاث بن نصر النفوسي، والرسائل الموجهة إلى نفاث نفسه، ومنها ما تطرق إلى العقيدة ووجوب التمسك بالدين مثل رسالة الإمام عبد الوهاب إلى أهل طرابلس، ومنها ما كان موجها إلى جماعة المسلمين بالنصح والتوجيه مثل رسالة أفلح إلى من كان تحت لوائه من المسلمين، والملاحظ أن تلك الرسائل يغلب عليها طابع الوعظ والإرشاد والتوجيه الديني الذي ميز الحكم الرستمي.

[1] الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص214.

ب/ خصائصه البنائية:

لم تخرج الرسائل الرستمية عن الهيكل البنائي المعروف لفن الترسل في الأدب العربي؛ فقد اشتملت على مقدمة ومضمون وخاتمة.

1- المقدمات: تضمنت مقدمات الرسائل الرستمية ما كان متعارفا عليه في ذلك الوقت، فكانت تشمل على البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، وفي بعضها الحمد والثناء على الله بما هو أهله وسؤاله الصلاة على الرسول الكريم، ومن أمثلة المقدمات ما جاء في رسالة الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد حيث يقول بعد البسملة " من أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد ، سلام الله عليك، وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم".

وما جاء في رسالة محمد بن أفلح إلى جميع رعيته إرشادا ونصحا يقول بعد البسملة "من محمد بن أفلح إلى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين، سلام عليكم وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله الصلاة والسلام على نبي الرحمة وهادي الأمة صلى الله عليه وعلى آله وسلم".

2- المضمون:

يقع الانتقال من المقدمة إلى المضمون في الرسائل الرستمية بصيغة أمّا بعد، وهي حسن تخلص من المقدمة للولوج إلى موضوع الرسالة؛ وقد كانت موضوعات الرسائل الرستمية تصب في قالب ديني سياسي، وذلك لأنّها كلها رسائل ديوانية أشارت إلى بعض ما حدث في تلك الفترة من حكم بني رستم، كما في رسائل الإمام أفلح بن عبد الوهاب في شأن نفاث، ورسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة "خلف بن السمح" وبعض تلك الرسائل كان موضوعه وعظي ديني مثل رسالة عبد الوهاب إلى أهل طرابلس يعرفهم فيها الإسلام، ويدعوهم إلى التمسك بالشريعة وموالاة أهل الهدى والبراءة من أهل الضلالة، وبعضها كان موضوعها نصح وإرشاد وتوجيه من أئمة بني رستم إلى ولاتهم ورعيتهم كما في رسالة أفلح إلى البشير بن محمد ينصحه ويوجهه ويحذره في الوقت نفسه.

3- الخاتمة:

لم تخرج خواتم رسائل بني رستم عما كان معروفا في نهايات الرسائل الأدبية، حيث نجد بعضها يختتم بجمل أمرية تفيد النصح مثل ما جاء في رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة

خلف "وتوبوا إلى ربكم، وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون"، وكذا ما ورد في رسالة الإمام أفلح إلى البشير بن محمد "فاتق الله واجتهد جهدك في توفير الحقوق وتوجيهها إلينا".

كما خُتم بعضها بالدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، كما في إحدى رسائل الإمام أفلح" عصمنا الله وإياكم ورزقنا العمل بطاعته فإنه ولى ذلك، ومنتهى الرغائب لا شريك له ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم"، واختتمت أخرى بالدعاء والسلام مثل ما جاء في رسالة أفلح إلى عامة المسلمين" والله أسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته والقيام بحقه برحمته إنه قدير، والسلام عليكم ورحمة الله"، وكلها لا تخرج عما عرف من خواتم في الرسائل في الأدب العربي.

2- فن الترسل في العهد الحمادي:

تميّز هذا العهد بنهضة ثقافية علمية وأدبية، لم تشهد لها المنطقة من قبل، فقد عرف أمراء الدولة الحمادية بتقديرهم للعلم وأهله وتشجيعهم للأدباء، ونشر الأمن والإطمئنان في نفوس المقيمين فيها والوافدين إليها، إذ عدّت مركزا إشعاعيا للثقافة والحضارة مثلتها مساجدها وكتاتيبها والمؤسسات التعليمية والزوايا، إلى أن أصبحت من أهم الحواضر العلمية في العالم الإسلامي، إذ أنّها تعدُّ "أول دولة بربرية بالجزائر الإسلامية"[1]، ويرجع الفضل في ذلك إلى قائدها ومؤسسها حماد الذي قام برفض المذهب الشيعي وإلغائه، وإتباع المذهب السني الذي أدى إلى تقريب أهل العلم والفقهاء والأدباء فيما بينهم واستنبات الأمن في ربوع الدولة الحمادية، واستقطاب أكبر عدد من الرحالة والمهاجرين من دول المشرق والأندلس وصقلية" فشهرة الحماديين بتقريبهم للعلماء ورعايتهم للعلم جلبت الكثير من عباقرة تونس والأندلس والشام والحجاز"[2].

كما عرفت الدولة الحمادية ازدهارا ثقافيا كبيرا، بسبب مجموعة من العوامل، تمكنّت من توفير مناخ ثقافي ملائم يدعو إلى التطور الفكري، والنهوض الحضاري، ولعل أول عامل يرجع إلى: موقعها متفتح على كل التيارات الخارجية، فكانت بذلك قطب للكثير من البلدان، فموقعها الجغرافي جعلها

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص115.

[2] المرجع نفسه، ص115.

مركزا إشعاعيا، إذ أنّ أهميتها لم تقتصر فقط على المدن المحاورة الداخلية بل شملت دولا تحيط بها من البحر.

أمّا بالنسبة للعوامل الأخرى التي ساعدت على التطور الثقافي، فنجد الاستقرار السياسي الذي أمّن الراحة والاطمئنان في نفوس المفكرين والمهاجرين الأجانب، فقد شهد أدب الدولة الحمادية في المغرب الأوسط تطورا ملحوظا، فقد أطلق على هذا العصر اسم الازدهار الأدبي، فقد تطورت جميع العلوم لكننا نخص بالحديث علوم اللغة العربية وآدابها، فقد انقسم الأدب عندهم إلى شعر ونثر، وقد احتل انشغالا كبيرا لدى كل الطبقات سواء مثقفة أو غيرها، حيث احتل الأدب في هذه الفترة مرتبة عالية.

كان النثر من أهم مميّزات الأدب الحمادي؛ إذ شكلت الكتابة أبرز الفنون النثرية، حيث انتشرت في أرجاء الدولة انتشارا واسعا، اشتهر فيها كتّاب بارزون نذكر منهم: أبو عبد الله محمد بن دفرير الذي يعد أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية بالإضافة إلى أبي القاسم عبد الرحمن القالمي.

كان يحيى بن العزيز آخر حكام الدولة الحمادية، ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وبلاده وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته. كانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شؤون الدولة، وكان لها ديوان إنشاء نبغ فيه بعض الكتاب، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بابن دفرير، ذكره صاحب الخريدة، فقال عنه" أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية"، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن عبد العزيز الحمادي وقد فرّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد فيها ببعض أمراء العرب القريبين من دولته، وفيها يقول:" كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرّ، رِضًا وتسليما للقدر، وتعويلا على جزائه الذي يجزى به شكر، ونصلي على النبي محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحر، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع، لقبح آثار من خان في دولتنا وضيّع، استفزّ أهل موالاتنا الشنآن[1]، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران[2]، فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا من حيث لا يبصرون، فكنّا في الاستعانة بهم

[1] الحقد والضغينة.

[2] الجحود وإنكار المعروف.

والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء، ويفر من صلّ[1] خبيث إلى حية صمّاء، حتى بُغِت مكرهم، وأعجل عن التلافي أمرهم، وردّ وبال أمرهم إليهم. فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، وملنا إلى مضنة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، ونستنفر من كنا نراه للمهم عدّة، وأنتم في هذا الأمر أول من يلهم الخاطر، وتثنى عليه الخناصر"[2].

إنّ معالجة هذه الرسالة معالجة نقدية حديثة تستدعي الاعتماد على أدوات إجرائية تكشف عن جماليات هذا النص التراثي، وعن المثيرات الأسلوبية في حدود نظام لغوي خاص، والوقوف على أهم مفاتيح مكوّنات هذا الخطاب للوصول إلى القيم الأسلوبية والجمالية التي تقدمها هذه العناصر والمكوّنات.

أ/ خاصية التقابل والتشاكل:

تتحدد هذه الخاصية من خلال علاقة الألفاظ بعضها ببعض، ومن خلال علاقة هذه الألفاظ بالنظام اللغوي للنص، فقد ذهب هيالمساليف:" إلى أنّ الأسلوب يمكن أن يحدد من زاوية علاقة الألفاظ بالأشياء، كما يحدد أيضا من خلال روابط الألفاظ بعضها ببعض، وكذلك من خلال علاقة مجموع الألفاظ بجملة الجهاز اللغوي الذي تتنزل فيه، فالأسلوب في نفسه دال يستند إلى نظام إبلاغي متصل بعلم دلالات السياق، أما مدلول ذلك الدال، فهو ما يحدث لدى القارئ من انفعالات جمالية تصحب إدراكه للرسالة"[3].

لقد استفاد ابن دفرير من هذه الخاصية في نصه الذي جمع بين ثنائيات متضادة، كالجمع بين انتصار عسكر عبد المؤمن، وفرار يحي بن عبد العزيز الحمادي، أو الجمع بين الشعور بالهزيمة والمرارة، والرغبة في الانتصار بطلب النجدة والعون من قبائل بني هلال.

ولعل هذا الجمع دال على ذلك التنازع النفسي وحدة المزاج والعصبية الذي عانى منه السلطان وكاتبه ابن دفرير، لقد جاء الجمع" كتفريغ لغوي صادق لمعاناة نفسية واقعية"، وليدل دلالة قوية على

[1] أفعى.

[2] العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تح: محمد المرزوقي، محمد لعروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1966، ج1، ص179.

[3] محمد العيد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط1، 1989، ص61.

امتداد الصوت وشموله واتساعه، لينقل بصدق ذلك الشعور الذي يجمع الشمول والاتساع، ومن "الوجهة النفسية ينحصر الفعل اللغوي الأساسي في إعطاء قيمة رمزية للعلاقة"[1]. ويبدو أن دلالة الألفاظ على معان متضادة تساعد المبدع على مراوغة اللغة لإبداع نصوص أدبية تثير الناقد وتحفزه على مقاربتها.

لقد استطاع ابن دفرير أن يوظف الألفاظ توظيفا حسنا ليكشف عن قمة المعاناة كقوله:" استفز أهل مولاتنا الشنآن، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا من حيث لا ينصرون، فكنا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء" لقد استطاعت هذه الجمل أن توجه القارئ إلى جمالية هذا التعبير الذي اعتمد على التقابل بين جمل متوالية في مقام أول ثم على تقابل الألفاظ في تواليها في مقام ثان فأنتج ذلك دلالة خاصة للنص على إبداع علاقات إسنادية جديدة، اعتمد فيها على التشبيه، والتي أدت إلى تواصل دلالي ناتج عن تواصل الكلمات والجمل ومع ذلك فهل اختار الكاتب ألفاظه أو أن سياق الحال فرض عليه معجما لغويا فرضا طوعيا.

يبدو أنّ سياق الحال، والموقف الإنساني الذي مرّ به الكاتب وجّه ذلك الاختيار فجاء متماشيا وذلك الموقف، ولعلّ هذا الأمر يعدّ من صميم الدراسة الأسلوبية.

ونص ابن دفرير وإن كانت تغلب عليه المباشرة والتقريرية، فهو نص مبدع مرتبط بعصره، وبظرف سياسي واجتماعي خاصين، وهو نص له أسلوبه الخاص به" والأسلوب هو اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وبنقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه، وهذا معناه أن الأسلوب رسالة أنشأتها شبكة من التوزيع قائمة على مبدأ الاحتمال والتوقع"[2].

إنّ اختيار الكاتب ألفاظه، أنتج دلالات تقربنا إلى واقع النص الذي تشاكلت ألفاظه، وجمله لتضفي على المعنى إجلالا، وجمالا كقوله على سبيل المثال"...فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، وملنا إلى مظنة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم النجدة، ونستفز من كنا نراه للمهم عدة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، وتثني عليه الخناصر" فجاء هذا النسق اللغوي ليؤكد على المعنى

[1] فائز الداية، علم الدلالة العربي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1985، ص77.

[2] محمد العيد، اللغة والإبداع الأدبي، ص35.

الذي أراده الكاتب، على الرغم من أن اللفظ يمكن أن ينصرف إلى أكثر من دلالة لعدم تقيّه بسياق واحد، إلا أنه، ههنا، قد جاء مقيدا بضرورة إثراء النص، فالأفعال، اعتزلنا، ملنا، بعثنا، نستنجد" تشاكلت لتسهم في بناء النص بناء يتماشى، وطبيعة الموضوع، والظرف السياسي، ثم تشاكلت مع ما يليها من ألفاظ لترسم واقع النص.

ومن أهم الكتاب الحماديين، أبو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن القالمي، والذي قيد له صاحب الخريدة نصا نعته من أهم نصوص النثر في الأدب الحمادي، وهو نص خفيف جمع بين الغرض من وضعه، والإنسانية والتدفق للتعبير والإبلاغ، يقول:" ولما كنت في مضمار سلفك جاريا، ولنا مواليا، وفي قضاء طاعتنا متباهيا، رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك، تمييزا لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم عن محض الصفاء، والولاء، فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدي (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إنّ الله غفور شكور)"[1].

ب/ البنية الدلالية للنص:

يندرج هذا النص في إطار أدب المعاملات الرسمية بين الحاكم ورعيته، والرعية والحاكم، كالنصح والإرشاد، وقد استفاد من مستويات دلالية توحي بوضوح الخطاب وتضفي عليه نوعا من الاستحباب والتودد والاقتراب، ويبدو أن التحليل الدلالي هو الذي يكشف عن هذه المستويات، "وبموجب مبدأ البنية المكونة تتألف الوحدات اللغوية الكبرى من وحدات لغوية أصغر، وأن أي جزء من الكلام هو بنيويا مؤلف على أكثر من مستوى، والمستويات اللغوية الثلاثة: الصوتي، التركيبي، والدلالي تتكامل عناصرها في خدمة القدرة اللغوية والتي بوساطتها تقوى على توليد الجمل، أيا كانت، كما نقوى على فهمها"[2]. ونحن لا يمكننا الاقتراب من النص إلا من خلال هذه المستويات التي تكشف عن جماليته، والتي من الصعب الفصل بينها في إحداث التأثير من المخاطب وتوصيل الرسالة.

[1] سورة الشورى، الآية [23].

[2] أبو بحر عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، مصر، 1969، ج1، ص206.

ج/ المستوى الصوتي:

لقد جاء الصوت في هذا النص غنيا ومثمرا للعملية التواصلية، وقد شكل تكراره ظاهرة مميزة، خاصة في أواخر الفواصل، فساهم في البناء الدلالي للنص، للصلة القائمة بين الصوت وما يدل عليه، أو بين الرمز ودلالته في ذهن المتكلم والمخاطب، والذي اعتمد على مبدأ الاختيار، والميل إلى أصوات دون غيرها، فانتقى لذلك ألفاظا تساعد حروفها على التواصل والالتقاء نتيجة انسجام هذه الحروف، وتلاؤمها من الناحية الصوتية، وهذا التآلف والتناسق هو الذي يجعل اللفظ سهلا على اللسان من جهة، وعلى السمع من جهة أخرى.

جاءت بنيات هذا النص منسجمة صوتيا، أسهمت في جماليته، والذي جاء في الفواصل نهايتها بأربعة أصوات، فالفواصل الأولى انتهت بصوت الياء الممدودة والتي تدعو المخاطب وتناديه ليتقبل الرسالة، وكانت هذه المقاطع الصوتية ممدودة لتعلن عن المشاركة الوجدانية بين المتكلم والمتلقي، وتساهم في فصاحة الكلام ووضوحه، فعندما قال:" ولما كنت في مضمار سلفك جاريا، ولنا مواليا، وفي قضاء طاعتنا متباهيا، جاء الخطاب واضحا مباشرا يعتمد على مبدأ الجملة الشرطية لاستحضار مجموعة من الأفعال المرجعية التي تبرز ما يأتي بعدها وتدعو إليه، وتحفز المخاطب وتهيئه إلى سماع الباقي وتقبله، بل إنها توجه الخطاب بحسب إرادة المتكلم، ولهذا جاءت الفواصل الثانية موجهة الرسالة إلى المخاطب مباشرة جوابا عن الجملة الشرطية قال الكاتب :" رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك"، يبدو أنّ صوت الكاف في أواخر الفواصل جاء لتنبيه المتلقي، وتوجيه الخطاب إليه للكشف عن العلاقة التي تجمع المتكلم بالمخاطب، وحرف الكاف حرف ذو جرس قوي يأتي للتوكيد على المعنى، والتنبيه والإشارة إلى ما يريده المتكلم، وقد قرنه ابن القالمي بالأسماء ليعقد القران بين هذه الألفاظ الدالة على أفعال إنجازية، وبين المخاطب للوصول إلى المشاركة الوجدانية والتفاعل الحيوي والشعور بالمسؤولية.

لقد جاء النص فصيحا مبينا لفصاحة ألفاظه ووضوحها، فهي ليست غريبة وغير مخالفة للقياس في اللغة العربية، ثم إن حروفها غير متنافرة وهذه الصفات اشترطها العلماء في فصاحة اللفظ.

كتب القالمي لعبد المؤمن بن علي سنة 547هـ، وظل يكتب له ولابنه يوسف من بعده إلى أن توفي، وكان يخدمه في عمله الكتابي عند الموحدين بجائي مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفي كتب مكانه لسلطان الموحدين يوسف ثم لابنه يعقوب حتى وفاته.

ولابن محشرة في مجموع رسائل موحدية تسع رسائل: رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدي سنة 576هـ، وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدي تبدأ في سنة 580هـ، وهي السنة التوفي فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدي إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة في سنة 575هـ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قفصة جنوبي تونس وقضى على ثائر بها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها في تلك الرحلة وأنه أغراهم بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكرا لهم بجهاد آبائهم في الفتوح الإسلامية، وأنّهم لبّوا دعوته، يقول ابن محشرة على لسانه:" جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤساهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح (الهلالية) فذُكروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآله الجزيلة ومِننه الجسام، ونُبّهوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق في أول الإسلام، وعُرّفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس، فقد طال استشراؤهم[1]، وأملى الله لهم فزاد عليه اجتراؤهم. ونُدبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضّهم وقضيضهم[2]، نفرة من انبتّ[3] عن الوطن، ونبذ علّق المسكن والسكن، وإن كانت هذه البلاد هي التربة التي مسّت أولا جلودهم، وقضوا فيها من الشباب عهودهم، فالذي ينتقلون إليه من الرّباط في سبيل الله يجمع لهم الخير في الدين والدنيا، والشرف بالكون في عداد كلمة الله العليا..وذاكرنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم، وخلصت إلى نفوسهم، وتغلغلت في بواطنهم، فتحركت إلى ذلك حفائظهم[4]، ومارت[5] لنصر دين الله عزائمهم..

[1] اشتداد شرهم وتفاقمه.

[2] بجميعهم ينقض آخرهم على أولهم ويندفع.

[3] انقطع.

[4] جمع حفيظة: الحمية والغضب

[5] تحركت.

...وقد سال بهم الأباطح[1]، وامتلأت بجموعهم الموامي الفسائح[2].. وإن جموعهم لتكاثر الحصى[3]، وتعادُّ[4] الدّبى، وتملأ الغيطان[5] والرُّبى"[6].

ولغة الرسالة جزلة مختارة، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوّى من اللغة أساليب تروق القارئ بسجعها ورصانة ألفاظها عامدا في أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التي يوردها بجملة أو جمل ترادفها، فتزيدها إيضاحا وبيانا كقوله في أواخر ما أقتبس من رسالته "وذاكرنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم، وخلصت إلى نفوسهم، وتغلغلت في بواطنهم، فتحركت إلى ذلك حفائظهم، ومارت لنصر دين الله عزائمهم". والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين الحصيفة، إذ لم يكتفوا بأن يستشعر أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم إلى الأندلس للاستعانة بهم في الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان لهم أثر كبير في رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى في وقائعهم معهم.

3- فن الترسل في العهد الزياني:

كان أدباء تلمسان يمتازون بالنثر الأدبي النشيط، نتيجة تشجيع السلاطين والأمراء لرجال هذا الفن، فشاع أسلوب السجع والمحسنات البديعية، إلى حد المبالغة في المراسلات والمكاتبات، وتألق الأدباء في فن التعبير، واتسم أسلوبهم بالقوة والجزالة واللغة السليمة.

بلغ فن الرسائل في تلمسان درجة كبيرة، ومنزلة هامة، بحيث برز فيه مجموعة من الكتاب الذين ذاع صيتهم في أقطار المغرب والمشرق؛ نذكر منهم: أبا بكر بن الخطاب الأندلسي (ت688هـ) ترك أثرا كبيرا في فن الكتابة بمدينة تلمسان في عهد يغمراسن[7]، أنشأ رسائل عديدة، كانت نموذجا

[1] جمع أبطح: المكان المتسع يمر به السيل ويترك فيه التراب والحصى.
[2] جمع ماماة: المفازة الواسعة.
[3] صغار الحجارة.
[4] تفاخر في كثرة العدد، والدبى: الجراد.
[5] جمع غيط: المطمئن الواسع من الأرض.
[6] مجموع رسائل موحدية، ص152.
[7] التنسي، نظم الدر والعقيان، ص127.

يحتذى بها، وقد وصف ابن خلدون رسائله وأثرها في بلاد المغرب قائلا:" إنه كان مترسلا، بليغا كاتبا مجيدا فاستكتبه، وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين، بمراكش وتونس في عهد بيعاتهم ما تنوقل وحفظ"[1]. ومعنى ذلك أن رسائله صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ.

إلا أن أغلب رسائله ضاعت، ولم يبق منها إلا تلك التي جمعها أديب مجهول الاسم، في مصنف سماه "فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن خطاب"[2]، ومنهم أيضا محمد بن خميس الكاتب والشاعر المميز، تتلمذ على ابن الخطاب وكان راوية له، ولا يستبعد أن يكون قد تأثر بأسلوبه في فن الكتابة.

فقد تقلد نفس وظيفة أستاذه في عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن، وممن اشتهر منهم في هذا الجانب ابنا الإمام، وابن مرزوق الخطيب، والمقري الجد والشريف التلمساني والآبلي، ومحمد بن هدية، وأبو عبد الله بن الرقام الهسكوري منشئ الرسائل في عهد أبي حمو موسى الأول، وابنه أبي تاشفين الأول[3]، ويحي بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغري، في عهد أبي حمو موسى الثاني[4]، وعلي وعلي بن مسعود الخزاعي الملقب بذي الوزارتين[5]، وأبو عبد الله بن مدورة[6]، ومحمد بن علي العصامي[7]، ومحمد بن صالح بن شقرون[8]، وأبو القاسم بن ميمون السنوسي[9]، وأبو الحسن علي بن بن العطار[10]، وغيرهم من الذين تقلدوا وظائف حكومية مختلفة في البلاطين الزياني والمريني[11].

[1] عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج1، ص163.

[2] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 2002، ج1، ص456.

[3] يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص210- 213.

[4] التنسي، نظم الدر والعقيان، ص168.

[5] شجرة النور الزكية، ص238.

[6] يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص215.

[7] المصدر نفسه، ج2، ص315.

[8] المصدر نفسه، ج2، ص143.

[9] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص457.

[10] المرجع نفسه، ج1، ص457.

[11] المرجع نفسه، ج1، ص457.

يتضمن ديوان سلطان بني زيان بتلمسان، عددا من الخطط والكتاب منها كاتب الأشغال، وكاتب سر السلطان وصاحب العلامة[1]، والرسائل الديوانية في حد ذاتها، تختص بمصالح الأمة وقوام الرعية حسب تعبير القلقشندي[2]، أي أنها تختص بشؤون الدولة، وتمتاز بالوضوح والجمال الفني، وتتقيد بشروط حدد عددها بعض الوثائق بخمسة وعشرين شرطا، منها على سبيل المثال: حفظ القرآن والإطلاع الواسع على السنة والأخبار والتواريخ والسير، وحفظ الكثير من الرسائل والمهارة في نظم الشعر والقدرة على الخطابة، والإلمام بالعلوم اللسانية والبلاغية[3]، وهي الصفات التي ذكرها أبو حمو موسى الثاني في كتابه "واسطة السلوك"، التي يجب أن تتوفر في كاتب السر وفي هذا الصدد يقول:" فصيح اللسان جريء الجنان بليغ البيان عارفا بالآداب، بارع الخط عالما بالحل والربط"[4]. لأن لأن الكاتب في رأيه هو عنوان المملكة "ومن كتابه يستدل على عقله"[5].

ومن الغريب أن تضيع معظم الرسائل الديوانية الزيانية، ولم يصل إلينا إلا القليل منها إذا قيست بالفترة الزمنية التي عاشتها الدولة الزيانية، وربما يعود سبب ضياعه في إهمال المؤرخين والأدباء لها وعدم الاهتمام بها وتسجيلها، أو أنها ضاعت في خضم المعارك والحصارات المتكررة لعاصمة بني زيان من قبل بني مرين وبني حفص، والإسبان ثم الأتراك فضلا عن الحروب الأهلية من أجل السلطة، وأن ما تبقى منها في عمومها، تتضمن مواضيع سياسية ومعاهدات تجارية تبادلها أصحاب تلمسان مع بعض الممالك المسيحية أهمها مملكة أراغون، وكذلك كانت لهم مراسلات مع مملكة بني نصر بغرناطة، والتي كانت تربطها ببني زيان روابط أخوة ومودة قويتين، ثم أنّ تلك الرسائل الموجهة إلى غرناطة _فيما يبدو_ أخذت طريقها هي الأخرى إلى الضياع والاتلاف، وقد تتضح مضامينها ومواضيعها من خلال أجوبة ملوك غرناطة وكتابها عليها، وبنفس الاندهاش والتعجب يمكن القول عن مراسلات بني زيان مع ملوك بلاد المشرق والمغرب[6] على الرغم من البعثات الديبلوماسية الكثيرة التي كانت تتوجه

[1] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص457.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص60.

[3] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل، ص89.

[4] أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص60، 61.

[5] المصدر نفسه، ص61.

[6] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص458.

من تلمسان إلى هذه الأقطار، فالرسائل الحفصية والمرينية ظلت محفوظة في المصادر والأرشيفات، بينما لم يحفظ من الرسائل الديوانية الزيانية إلا القليل النادر وهو لغز محير للغاية.

*** نماذج من الرسائل الديوانية:**

إن أغلب الرسائل الرسمية أو الديوانية التي تتوفر لدينا أغلبها تبين نوعية العلاقة السياسية والتجارية القائمة بين دولت بني زيان وغيرها من الامارات الأوروبية وبني نصر في غرناطة، وبلاد المشرق، وتطرح قضايا كانت قائمة تتعلق بحرية التجارة وتأمين سبيلها، وأحوال الأسرى، وتوضح مراحل السلم والهدنة، خاصة التي ابرمت بين أصحاب تلمسان ومملكة أراغون الإسبانية، وتلك المتبادلة مع مملكة غرناطة تتعلق بالقضايا الثنائية وبالمصير المشترك، ومن بين هذه الرسائل تلك التي أرسلها السلطان أبو تاشفين الأول إلى سلطان أراغون "جاكمة الثاني" تحتوي على مشروع اتفاق هدنة بين البلدين جاء فيها:" سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته، وبعد" الحمد الله العظيم والصلاة على سيدنا ومولانا رسوله المصطفى الكريم والرضا عن أصحابه الخلفاء التابعين له، عليه السلام على المنهج القويم والصراط المستقيم، والدعاء لهذا المقام العلي التاشفيني السني بالنصر العزيز، والفتح العميم فالكتاب إليكم، كتب الله لكم أصحاب الأعمال وأزكاها وبلغكم من التوفيق انهى الأماني واقضاها، من حضرتنا بمدينة تلمسان حرسها الله تعالى على الخير التام، والسير العام والحمد لله، كما هو أهله وعن الوعي بجانبكم والاغتباط بمصاحبتكم، والعمل على ما يؤكد أسباب مواصلتكم، وبمقتضى وجهنا إليكم ولدكم الزعيم الأنجد الأنهض الأجد المكرم لدينا الأثير عندنا جاكمة، مع ثقتنا الشيخ المكرم الأمين الحاج أبي يعقوب يوسف بن الحواء، يرسم عقد الصلح بيننا وبينكم على حسب ما في العقود الواصلة صحبتنا إليكم، وألقينا إليها ما يلقيانه من معاني ذلك كله إليكم، ويقررانه على الكمال وإتمام لديكم إن شان الله تعالى والسلام على من اتبع الهدى، وكتب في سابع عشر رجب الفرد المبارك عام سبعة وعشرين وسبعمائة"[1].

وهناك رسائل أخرى عديدة، تتضمن مسائل وقضايا سياسية وتجارية، كالتي وجهها مثلا الوزير هلال القطلاني إلى جاكمة الثاني باسم السلطان أبي تاشفين الأول، تتعلق بتحرير الأسرى المسيحين

[1] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص458.

الموجودين في سجون تلمسان، والذين يعدون بالآلاف حيث أصبحوا في عداد العبيد[1]، وهي قضية كانت تطرح بإلحاح خاصة من الجانب المسيحي، فرد عليهم أبو تاشفين رافضا طلبهم في رسالته الجوابية إلى صاحب أراغون، جاء فيها:" وأما ما أشرتم إليه من تسريح من عندنا من الأسرى، فذلك لا يمكن أن يكون...لأن ما عمر بلادنا إلا الأسرى وأكثرهم صناع متفننون في أنواع جميع الصناعة، ولو طلبتم ما يستغني عنه الحال في تسريح خمسة أو ستة لا يسعنا مطلبكم وقضينا أربكم، وأما تسريح الجميع فصعب لأن ذلك يخلي المواضع، ويعطل ما يحتاج إليه من أنواع الصنائع، فإن أردتم أن تكون الصداقة بيننا وبينكم، فيما عدا الأسرى ويكون حالنا وحالكم..."[2].

أما الرسائل الرسمية التي تحمل في طياتها مراسيم وظهائر وأوامر وتوجيهات ووصايا إدارية مختلفة، التي كان السلطان الزياني يوجهها من تلمسان إلى الولاة والعمال وحكام الأقاليم فلم يبق منها إلا القليل النادر، كالرسالة التي وجهها أبو حمو موسى الثاني إلى عبد الرحمن بن خلدون وهو بمدينة بسكرة، عند حكامها من بني مزني يطلب منه جمع القبائل العربية، لاسيما منها قبائل رياح ليستعين بها في هجومه على مدينة بجاية.

وكذلك الظهير الذي كتبه الكاتب أبو بكر بن خطاب، على لسان مخدومه يغمراسن والمتعلق بمنح الأندلسيين المهاجرين الحق في السكن والتملك للأراضي الزراعية[3].

وهناك رسائل أخرى سياسية ذات طابع ديني، تتعلق بالولاء والمبايعة لأن البيعة موضوع سياسي معتمد على الدين، وقد ترك لنا الكاتب ابن خطاب رسالتين أنشأهما باسم يغمراسن لنظيره السلطان علي بن اسحاق الحفصي بتونس، يدور موضوعها حول ولاء بني زيان لبني حفص وهذه بعض الفقرات منها:" المستند إلى ظل حرمتنا (الخلافة) الموالي شكر جزيل احسانها وعظيم منتها...سالك من العبودية لها سننا واضحا موال في خدمتها، ونصيحتها عملا يعتقد، صالحا رابحا شاكرا لا حسانها، الذي لم يزل غاديا عليه رابح، لا يزال يدب على ذلكم ليله ونهاره، وينظر إلى ما يوافق

[1] يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص216.

[2] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص459.

[3] المرجع نفسه، ج1، ص460.

رضاها فيتتبع آثاره...والرضا عن الإمام المهدي المعلوم الباسق في الدرجة النبوية..وببركة الاستناد إلى الحضرة الكريمة، أيدها الله تدرك المنى وتنقاد لطالبها الدنا وترتقي المراتب العلى"[1].

ويتضح مما سبق القيمة السياسية والدينية والتاريخية لما جاء في الرسالتين، حيث تبين فيهما طبيعة العلاقة ونوعها بين صاحب تلمسان ونظيره صاحب تونس، وكيف كان الولاء يتكئ على عقيدة المهدوية.

ظلت الرسائل تتجد بين بني زيان وملوك أرغون، فكتب إليهم السلطان أبو حمو موسى الثاني عدة رسائل تتعلق بقضايا سياسية وتجارية.

4- فن الترسل في العهد العثماني:

ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية في العهد العثماني، لأن الدولة الحاكمة كانت تركية، وكانت تعتمد على اللغة التركية في رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا في عهود باشوات أو ولاة معدودين هم: محمد بكداش وحمد الكبير والحاج أحمد في قسنطينة، فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذقون العربية، أما من عداهم فظل يتخذ التركية في المعاملات الرسمية، وبدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية[2] التي كانت تلتفُّ حولها طبقة من الكتاب الممتازين المتنافسين، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه في براعته الأدبية، أمّا في هذا العهد فلا تنافس، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا، ومن رسالة لكاتب يسمى محمدا القالي قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون، وفيها يقول:" جلّ الله تعالى مالك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أراده عن إعزاز السادات الترك، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد، وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد، فسُلكت بهم السبل وأمنت بهم البلاد، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار، نسأل الله أن يبقى جنابهم السعيد عاليا على كل جانب، وأن يخلّد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار...وبعد فإن الله تعالى منّ على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر،

[1] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص460.

[2] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص232.

المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر، الإمام العادل، السلطان الفاضل، العالم العامل، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي أطلعة الله في سماء الجلالة بدرا، ورفع له في درجات الأمراء قدرا، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا وذكرا، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته، وجناب الكفر مهتضما بعظيم صولته"[1].

وواضح ما يجري في الرسالة من التكلف الشديد، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله:"وهم أصل الرفعة والتشريف. ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجعة (للعباد) واستعصت عليه سجعة الراء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيرادها بقوله (الأقطار). وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له مبالغة مع كثرة الأدعية. وكل ذلك تكلف وتمحل في الرسالة، وكأنما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص196.

إنّ الرسائل فن من الفنون الأدبية النثرية يتبادلها الأدباء والإخوان في مناسبات معينة، ويتخذون منها وسيلة لإبداء البراعة، فتفننوا في اختيار الألفاظ والعبارات، واظهار ما لديهم من مهارة بيانية منمقة، وموهبة كتابية، ويكثر في الرسائل الشواهد القرآنية، والأحاديث الشريفة، وأشعار القدماء.

تصوّر الرسائل الإخوانية عواطف النّاس ومشاعرهم من فرح وحزن وعتاب وهجاء واعتذار واستعطاف وتهنئة وتعزية، وغيرها من المشاعر الإنسانية المختلفة.

والترسل الإخواني هو الذي يكتبه الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة يعبّر بها كاتبها عن الشوق والحنين للأهل والأصحاب.

وهناك من يعرفها بقوله:" هي فن من فنون النثر القولية، عرفها العرب منذ القدم، وهي مثل فنون النثر الأخرى القصة، المسرحية، السيرة الذاتية.. لها خصائصها المميزة التي تجعلها فنا قائما بذاته"[1].

يقول القلقشندي عن هذا النوع من الترسل:" الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان، والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء"[2].

وقد عدد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر نوعًا هي:" التهاني، والتعازي، والتهادي، والشفاعات، والتشوق، والاستزارة، واختطاب المودة، وخطبة النساء، والاستعطاف، والاعتذار، الشكوى، واستماحة الحوائج، والشكر والعتاب، والسؤال عن حال المريض، والأخبار، والمداعبة[3].

ولا نجد في طيات الكتب التي تحدثت عن هذا النوع من الرسائل أية إشارة إلى ما كتب في العصر الجاهلي، ولعل السبب يعود إلى قلة الكتاب في ذلك الزمن أو إلى عدم اهتمام الرواة بما كتب لانشغالهم بالشعر الذي روي منه شيء كثير وإلى ثقافة المشافهة التي كانت سائدة آنذاك. وأما في صدر الإسلام" فإن ما وصلنا منه رسالة إخوانية واحدة للنبي . صلى الله عليه وسلم . يعزي فيها معاذ بن جبل . رضي الله عنه . في ابن له مات، وقد ضاع أكثر رسائل العهد الأموي من هذا النوع وما

[1] حسين علي محمد، التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط6، 2005، ص151.
[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص126.
[3] المصدر نفسه، ج9، ص5.

بقي منها فهو في النصح والإرشاد والعتاب والتعزية والاعتذار والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء. ومن هذه الرسائل رسالة محمد بن الحنفية إلى أخيه الحسين حين افترقا متخاصمين وأراد محمد مصالحته"[1].

والرسائل الإخوانية ينشئها الكتاب فقد"... كانوا يتراسلون فيما بينهم متخذين من الرسائل وسيلة للتعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم وما تتعرض له أحوالهم النفسية من نوازع متضاربة؛ فصوروا فيها ما يعتروهم من شوق وفرح وما يتعرضون له من أحزان وأتراح؛ وما يداخلهم من رضا وغضب، واتسعت موضوعات الرسائل الإخوانية فأصبحت تعكس عواطف الكتاب في الصداقة والشوق والبشارة والفراق، والاستعطاف والاعتذار وغير ذلك، وتنافس الكتاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل، فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى؛ فجمعت بين المتعة الوجدانية، والمتعة الفنية، وأحدثت بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم"[2].

***موضوعاته:**

تدور أغلب موضوعات الترسل الإخواني حول الجانب الإنساني وما يرتبط به من صداقة وأخوة، وعواطف نبيلة، وما يتصل بالصداقة كما عبرت عما كان بين بعض الأصدقاء من تبادل للهدايا على اختلافها، لكن يبقى موضوع الصداقة ... من أبرز الموضوعات التي اجتذبت الكتاب، فعبروا في رسائلهم عن هذه العاطفة الإنسانية النبيلة، وأشادوا بروابط الإخاء والمودة التي تنعقد بينهم، ومن الجوانب التي طرقها الترسل الإخواني الجوانب الاجتماعية حيث اتسعت الرسالة الإخوانية للموضوعات المتصلة بالصداقة" كالرغبة في التلاقي للمسامرة أوالمنادمة أو الإئتناس،وعبرت كذلك عن بعض العادات الاجتماعية التي شاعت بين الكتاب آنذاك كتبادل الهدايا من كتب وزهور وخيول وسيوف وغيرها .واتخذ الكتاب الرسالة الإخوانية أداة لتوجيه الشكر إلى إخوانهم لمعروف أسدوه إليهم أو خير اختصوهم به أو معروف أحاطوهم به[3]. ولم تقتصر الرسالة الإخوانية على ما سلف ذكره من موضوعات بل امتدت إلى موضوعات أخرى لتشارك الشعر وفنون أخرى في ما طرقت من

[1] عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، الجزائر، (د، ط)، (د، ت)، ص34.

[2] فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، (د، ط)، 1991، ص35.

[3] المرجع نفسه، ص35.

موضوعات وأغراض فـ"...تناولت موضوع(الاعتذار) باعتباره يمثل صورة من صور العلاقة المتبادلة بين الكتاب؛ فكان الكاتب يعتذر عن تلبية دعوة أو المشاركة في إحدى المناسبات ذاكرًا له الأسباب التي حالت دون تلبية دعوته، وطوع الكتاب الرسالة الإخوانية لموضوعات أخرى كالوصايا والتشفع فكان الكاتب يوجه رسالة إلى بعض إخوانه يسألهم فيها إنجاز أمر يتعلق به أو بأحد معارفه وأصحابه،وكانت هذه الرسائل أشبه ببطاقات التوصية وفيها يعمد الكاتب إلى الإيجاز وعرض مسألته في عبارات قصيرة.

وكانت التهاني من الموضوعات التي شغلت مساحة من الرسائل الإخوانية لتعكس بذلك عادة " اجتماعية وثيقة الصلة بالمجتمعات المتحضرة؛ فكثرت التهاني بالولاية وغيرها من المناسبات الاجتماعية السارة كالزواج والإنجاب والعودة من السفر والإبلال من المرض، وعكست هذه الرسائل عمق العواطف المتبادلة بين الكتاب،كما أظهرت براعة بعض الكتاب في التعبير عن معانيهم، وقد عمد الكتاب في تهانيهم إلى الإيجاز لتصبح رسائلهم أقرب إلى بطاقات التهنئة المتداولة في وقتنا الحاضر"[1].

وجدير بالذكر أن الرسائل الإخوانية لم يشترط النقاد في صوغها وبنائها شروطًا دقيقة ملزمة، وإنما أطلقوا فيها العنان للكتاب للتعبير عن خواطرهم ومشاعرهم من غير قيد، لأنه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلف في الخطاب، مما جعل النقاد يفشلون في وضع قواعد وضوابط ملزمة لكتاب الرسائل الإخوانية، كما يبينه أحمد بدوي" وقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية، ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقة"[2]، وهذا ما جعل الترسل الإخواني أكثر أدبية وأكثر جمالاً من الترسل الديواني وجعل رسائله" أدخل في الأدب، وأقْبَلُ للتخييل والصور البيانية، والصنعة البديعية، تحتمل الاقتباس من المنثور والمنظوم، وتنافس الشعر في جل أغراضه"[3].

[1] فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، ص39.

[2] أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د، ط)، 1964، ص32.

[3] محمد مسعود جبران، في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004، ج2، ص149.

1- رسالة ابن الربيب التيهرتي:

يبدو أنّه لم يكن بالجزائر اهتمام مبكر بتسجيل الرسائل الشخصية، ولولا أنّ الإباضية اهتموا بتدوين الرسائل الديوانية لحكام الدولة الرستمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة أبي علي ابن الربيب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي الذي ترجم له ابن رشيق في كتابه "الأنموذج" وقال إنه تولى القضاء طويلا في بلدته تاهرت وأنّه توفي سنة 420هـ، ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها، وإنّما ذكرها ابن بسام في كتابه الذخيرة، إذ قال في ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم كتب إليه أبو علي بن الربيب رقعة يقول فيها:" إنّي فكّرت في بلدكم أهل الأندلس، إذ كان قرارة كل فضل، ومقصد كل طرفة، ومورد كل تحفة، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تجلب، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق[1]، مع كثرة علمائه، ووفور أدبائه، وجلالة ملوكه، ومحبتهم للعلم وأهله، ورفعهم من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب، يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت في الحروب نكايته، فشجع عندكم بذلك الجبان، وأقدم الهيبان، ونبه الخامل، وعلم الجاهل، ونطق العيّ، وشعر البكيّ..وتنافس الناس في العلوم، م هم مع ذلك في غاية التقصير، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دّونوا فضائل أعيانهم، وقلّدوا الكتب مآثر أقطارهم وأخبار الملوك والأمراء، والكتاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين، و(**لسان صدق في الآخرين**)[2]. وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح، وثابت على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صنّف، أن يعنّف، أو (**تخطفه الطّير أو تهوى به الرّيح في مكان سحيق**)[3] لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع مفاخر أهل بلده ولم يستعمل نقسا (مدادا) في فضائل ملوكه، ولا بلّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه على أنّه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الغهمال من بيانه، لوجد للقول مساغا، ولم تضق عليه المسالك هناك.

ولكن همّ كل أحد منهم أن يطلب شأو[4] من تقدّمه من رؤساء العلماء، ليحوز قصب السبق،

---

[1] تروج.

[2] اقتباس من سورة الشعراء.

[3] اقتباس من سورة الحج.

[4] غاية.

ويفوز بقدح ابن مقبل[1]، ويأخذ بكظم دغفل[2]، ويصير شجى في حلق أبي العميثل[3]، فإذا أدرك بغيته، واخترمته –بعد–منيته، دفن علمه معه، ومات ذكره، وانقطع خبره. ومن قدّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم، فألفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدّد طول الأبد. فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحة راكب، أو رحلة قارب، لو نفث[4] ببلدكم مصدور، لأسمع ببلدنا من في القبور، فضلا عمن في الدور والقصور، وتلقّوا قوله بالقبول، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذي سماه بالعقد[5]. على أنه يلحقه فيه بعض اللّوم، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده[6]، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه، لكنه أكثر وطوّل، وأخطأ المفصل[7]، وأطال الهزّ بسيف غير مقصل[8]، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم، وإغفال ما يهمّهم. فأرشد أخاك –أرشدك الله– إن كان عندك في ذلك الجليّة، وبيدك فصل القضية، إن شاء الله"[9].

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام في الصياغة، حتى ليقترب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزاوجة وكثرة الترادف، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة، وإن حدثت سجعة عفوا سرعان ما يعدل ابن الربيب عن مثيلة لها إلى التعادل والترادف في العبارات، ونشعر بجانب ذلك أن الصياغة محكمة، فالألفظ جزلة مصقولة، أحكم ترتيبها كما أحكم وضع الاقتباسين القرآنيين فيها، مع الإطراف في الكنايات والإستعارات ، كتعبيره عن تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم، إذ يقول:" كل إمرئ منهم قائم في ظله لا يبرح، وثابت على كعبه لا يتزحزح" ويقول عمن أهمل الكتابة عن الكتاب

[1] ابن مقبل شاعر يتمثل بقدحه في الفوز والظفر.

[2] دغفل: نسابة كبير عند العرب، يأخذ بكظمه: يماثله في علم النسب، وأصل الكلمة: يأخذ بكظمه الإمساك على ما عند المرء من العلم وغيره.

[3] أبو العميثل هو الذي تعرض لأبي تمام يقول له لماذا لا تقول من الشعر ما يفهم فقال له : وأنت لماذا لا تفهم ما يقال.

[4] نفخ.

[5] كتاب العقد الفريد الشهير.

[6] الجوهرة الكبيرة في وسط العقد.

[7] المفصل : كل ملتقى عظمين في الجسد ويضرب التعبير مثلا للخطأ الجسيم.

[8] المقصل من السيوف : القاطع.

[9] ابن بسام، الذخيرة، ج1، ص133.

والوزراء:" إنه لم يبلّ قلما بمناقبهم" يقصد أنه لم يغمس قلمه في مداد للكتابة عنهم، ويترك الكناية إلى الإستعارة قائلا:" على أنه لو أطلق ما غقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه"، ويستغل ثقافته في التعبير عن الفوز والظفر، إذ يقول: وليستغل قصب السّبق، ويفوز بقدح ابن مقبل الذي تغنى في شعره بفوزه، ويأخذ بكظم دغفل كأنما يساويه في قدرته المشهورة بعلم الأنساب، ويصبح شجى وغصة في حلق أبي العميثل على نحو ما أصابه أبو تمام بغصة مريرة حين ردّ عليه ردّا مفحما، وتلطّف ابن الربيب لمخاطبه أبي المغيرة بن حزم الأندلسي حين قال له:" لو نفث ببلدكم مصدور (مريض بصدره) لأسمع ببلدنا من في القبور فضلا عمن في الدور والقصور". ثمّ أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم في الرسالة، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسي ألف كتابا أدبيا في مجلدات سماه العقد الفريد، عرض فيه الثقافة الأدبية في المشرق، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله ببعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسي يحيى الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقي خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعل الصاحب بن عباد حين اطلع عليه قال:" هذه بضاعتنا ردّت إلينا".

2- رسالة عبد الكريم الفكّون:

راسل أحمد المقّري صاحب نفح الطيب عبد الكريم الفكن شيخ الإسلام بقسنطينة، وظل حكام الجزائر يعينونه أميرا للحج عن بلده والجزائر عامة، وكان المقري أرسل إليه بمنظومة في علم الكلام يتمنى أن يتلطف بصنع شرح لها، فردّ عليه برسالة أثبتها المقري في نفح الطيب قائلا في ديباجتها إنها كتاب وافاه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وفقيهها، سلالة العلماء والأكابر، وارث المجد كابرا عن كابر، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله، وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون:" إني أحمد الله إليك وأصلي على نبيه سيدنا محمد، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم، فإني أحوج الناس إليه، وأشدهم في ظني إلحاحا عليه، لما تحققت من أحوال نفسي الأمّارة، واستبطنت من دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرّارة، كأنما عميت عن الأهوال التي أشابت رؤوس الأطفال، وقطعت أعناق كمّل الرجال، فتراها في لجج هواها خائضة، وفي ميدان شهوائها راكضة، طغت في غيّها وما لانت، وجمحت فما انقادت ولا استقامت...والله أسأل حسن الألطاف، والستر عما ارتكبناه من التعدي والإسراف، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم، وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم: سندنا سيدنا وملانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم..وقد اتصل

بيدي جوابكم، أطال الله في العلم بقاءكم، فرأيت من عذوبة ألفاظكم وبلاغة خطابكم، ما يذهل من العلماء فحولها، وينيلها لدى الجثوّ[1] لسماعه سؤلها ومأمولها..وقد ذيّلتموه بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها، على أني غير قائم بفرضها ونفلها، فالله تعالى يمدكم بمعونته، ويجعلكم من أهل مناجاته بحضرته..وظنّنا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعني:"إضاءة الدجنّة" تقييدا أرجو من الله فيه توفيقا وتسديدا بحسب قدرى لا قدركم، وعلى مثل فكري القاصر لا على عظيم فكركم.."[2].

فكركم.."[2].

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت في السابع أو ثامن رجب من عام 1038هـ، وواضح ما يجري في الرسالة من سجع متكلف وأنها تقوم على المبالغة المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف في الشهوات والآثام، لا لأن ذلك حقيقة ولكن لأنه يريد صنع سجعات، ويقول إن نفسه عميت عن الأهوال التي أشابت رؤوس الأطفال وقطعت أعناق كمّل الرجال، والمبالغات في الرسالة أكثر من أن نحصيها أو نقف عندها، وقد اجتلبت من أجل السجعات ورصفها.

3- رسالة تعزية لمحمّد بن حسين:

من خلال قراءتنا لرحلة ابن حمادوش عثرنا على رسالة تعزية تلقاها من المفتي محمّد بن حسين قرمان عقب وفاة ابنه الحسين. عبّر فيها عن تعازيه الخالصة، واعتذر عن عدم حضوره للجنازة لأنّه لم يسمع بالحادثة إلاّ بعد الدفن، حيث يقول فيها:"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وآله وصحبه وسلم، إلى الجناب الكريم العالي، جامع أصناف المعالي، الذي انتهت به أماني الوداد، ومحبة الأخوة، وحسن الصداقة، والاعتقاد، مولانا الفاضل الكامل السيد الحسني سيدي الحاج عبد الرزاق، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإليه فقد بلغنا ما أحار الأذهان وأشجاها، وأطار النوم من الأجفان وأبكاها، وأضرم لواعج الأشواق، وأذكى زواعج الاحتراق، بالذي صدع أعشار القلوب، وأفاض على صحن الخد الدموع من الغروب...ولقد كانت نفسي غريقة في أبحر حزنها، والعين بحكم الرقة البشرية جائدة بواكف مزنها، حتى أدركتني محنتك وموت ولدك فأخذتني الصدمة، وهيجت لي المحنة، فلقد رمانا الدهر بسهام صروفه فأصمانا، وتعهدنا خطبه فهد عروشا

[1] الجثو : الجلوس على الركبتين.

[2] المقري، نفح الطيب، ج3، ص238.

وأركانا...وقد ندب الله تعالى خاصة خلقه إليه فقال جل من قائل:﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ**﴾[1]، وقال:﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[2]، وقال سبحانه:﴿**فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً**﴾[3]، ومثلكم بهذا أجدر، وأعلم، وأشهر، وما هو إلا ريحانة الجنان، وشفيع في الأبوين عند الرحمن، جعله الله من الذرية الحسنة، والنطفة الطيبة، وتقبله الله، وجعله ذخيرة، وذخرا يشفع، وينفع ، كما ورد بذلك في الصحيحين، كما لا يخفاكم، وعن قريب قد مرّ على مسمعكم الشريف ما هو في الصحيح، قال سليكم: فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم من نزول هذا الخطب الفاضح الجسيم، فهذه التسلية، والتعزية من العبد الفقير الضعيف إلى مولاه الغني اللطيف، محمّد بن حسين، المفتي كان رحمه الله آمين"[4].

وصف المفتي جزعه بالمصاب الجلل الذي ألم بصديقه ابن حمادوش بوفاة ابنه الصغير، وأنّه لم يسمع بذلك إلاّ بعد مرور فترة معينة، فصور مشاعره التي تنبئ عن علاقة الصداقة الحميمة التي تربط الشخصين، ولم يتردد المفتي في دعمه، ومواساته، وتشجيعه على تحليه بالصبر الذي هو مفتاح الفرج، وأنّه أهل لذلك، ثمّ ختم رسالته بالدعاء لابن حمادوش ولابنه المتوفى.

لائم محمّد بن حسين في رسالته بين اللفظة واللفظة لإرضاء السمع، وإمتاع السامع ومواساته، فجاءت لغته رصينة قوية. احتج بالقرآن الكريم، والحديث الشريف ليؤكد كلامه، وليخفف عن صديقه الذي فقد فلذة كبده.

اتبع محمّد بن حسين المقوّمات الأساسية للرسالة حيث ابتدأها بالبسملة والحمدلة والتصلية على النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، ثمّ ذكر موضوع الرسالة، وهو تقديم التعزية والاعتذار مشيرا إلى أنّه هو الآخر تعرض لمحنة إلا أنّه لم يفصح عنها، وبعد ذلك ختم رسالته بآيات قرآنية حثّ فيها صاحب الرّحلة على التّمسك بالصبر.

تبادل الإخوان والأصدقاء رسائلا فيما بينهم في مناسبات مختلفة كالأعياد مثلا، والتهنئة، والتعزية، وإظهار الشوق والحنين.

---

[1] سورة النحل، الآية [127].

[2] سورة الزمر، الآية [10].

[3] سورة المعارج، الآية [5].

[4] ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص150.

افتتحت الرسائل النثرية التي سقناها بالبسملة والتحميد، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو مبتدئة بالدعاء للمرسل إليه، وذكر اسمه وتعداد مناقبه، وإقرائه السلام، ثمّ يلج إلى الغرض المقصود من الرسالة الذي هو جوهرها، وتجلى من خلال الرسائل السابقة في الشوق والمحبة، والتعزية، والاعتذار.

أمّا الخاتمة فتكون بطريقة مماثلة لمقدمة الرّسالة، أي بألفاظ وعبارات تؤكد صلب الموضوع، ومن آداب الرسالة أن تذيل بإمضاء المرسل، وأن يذكر تاريخ كتابتها.

اعتنت الرسائل هي الأخرى بالتنميق اللفظي، والاعتناء بالأساليب البيانية والتراكيب البلاغية، فجاءت عباراتها مسجوعة حيث لاءمت بين اللفظة والأخرى في تنسيق محكم وبناء متين. مع التفنّن في التعبير، ومراعاة التوازن بين الجمل ممّا دلّ على حسن السبك وجودة الصياغة، حيث أظهرت هذه الرسائل الموهبة الكتابية، وروعة أساليب البيانية المنمّقة القوية.

عندما نمضي إلى العهد العثماني، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأنّ الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية في رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا في عهود باشوات أو ولاة معدودين هم: محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد في قسنطينة[1]، فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذقو العربية. أمّا من عداهم فظل يتخذ التركية في المعاملات الرسمية، وبدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية التي كانت تلتفّ حولها طبقة من الكتاب الممتازي المتنافسين، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه في براعته الأدبية، أما في هذا العهد فلا تنافس، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا. ومن رسالة لكاتب يسمى محمدا القالي قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون، وفيها يقول:" جلّ الله تعالى مالك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أراده من إعزاز السادات الترك، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد، وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد، فسُلكت بهم السُّبل وأمنت بهم البلاد، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار، نسأل الله أن يبقى جنابهم السعيد عاليا على كل جناب، وأن يخلّد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار..وبعد فإنّ الله تعالى منّ على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر، المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر، الإمام العادل، السلطان الفاضل، العالم العامل، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي أطلعه الله في سماء الجلالة بدرا، ورفع له في درجات الأمراء قدرا، وأجرى له على ألسة الخلق ثناء جميلا وذكرا، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته، وجناب الكفر مهتضما بعظيم صولته"[2]

وواضح ما يجرى في الرسالة من التكلف الشديد، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله:"وهم أصل للرفعة والتشريف. ويطيل العبارة بعدها حتى يقع

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص231.

[2] أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص196.

على سجعة:"العباد" واستعصت عليه سجعة الراء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن م إيرادها بقوله:"الأقطار". وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له مبالغة مع كثرة الأدعية. وكل ذلك تكلف وتمحل في الرسالة، وكأنما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة.

إن المقامة الجزائرية في مراحلها المبكرة قد انحرفت عن تقاليد المقامة المشرقية العربية، وهو انحراف لا ينفي بعضا من ملامح اتباعية للمشرق لم تكن قط مطلقة بقدر ما كانت اتباعية نسبية، تحكمت فيها طبيعة الشخصية الجزائرية الميالة للإبداع والتميز والمعارضة والتحدي والتفوّق، وذلك في علاقتها بالمشرق. إنها علاقة طبعها الحنين والاحتذاء مرة، وطبعها الصراع والمعارضة والمنافسة مرات أخرى.

فالمقامة الجزائرية شكلت ثورة أدبية حقيقية في النثر العربي شكلا ومضمونا، وهي ثورة تمخضت عن ثورات اجتماعية أشعل ويشعل فتيلها صراع سرمدي بين الخير والشر.

يذكر الغبريني في كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريري للطلاب طوال القرن السابع للهجرة مثل: عبد الله بن نعيم الحضرمي ويوسف بن يخلف ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعي، غير أنّ أدباء الجزائر قبل العهد العثماني لم يحاولوا محاكاة الوهراني في مقاماته ولا محاكاة كتابها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمذاني والحريري. أمّا في عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البوني، إذ كتب سنة 1106هـ مقامة في أربع صفحات بعنوان: "**إعلام الأخيار بغرائب الوقائع والأخبار**" وهي في بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر، ويستهلها بقوله:" الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب، والنوائب فضائل لذوي الأقدار والخطوب، وسلط- سبحانه وتعالى- على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف...وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرّغوا أذهانكم وألقوا آذانكم، وتأملوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب، فقد ارتفعت الأشرار، واتضحت أرباب المعارف والأسرار، وانقلبت الأعيان، وفشا في الناس الزور والبهتان، وأُهملت أحكام الشريعة، وتصدّى لها كل ذي نفس للشر سريعة بينما نحن في عيش ظله وريف، وفي أهنأ لذة بقراءة العلم الشريف، إذ سعى في تشتيت أحوالنا وقلوبنا، وهتك أستارنا وعيوبنا، من لا يخاف الله ولا يتقيه، فرمى كل صالح وفقيه، بما هو لاقيه، واعتدّ في ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل، وهم –والله- أوباش أراذل. وما كفاه بثّ ذلك في كل ميدان..حتى أوصله لمسامع

السلطان، فلم نشعر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير، بعزل صديقنا الشهير..من خطة الفتوى، مع أنه ذو علم وتقوى، وتحيرنا من ذلك أشد التحير، وتغيرنا بسببه أعظم التغير"[1].

عدّ هذا الأثر الأدبي مقامة، والحقيقة أنّني أجدها قطعة أدبية "يتيمة" في عائلة الأنواع المعروفة، وربما يكون من المنطق إعادة النظر في تصنيفها، وتحديد أجناسيتها الأدبية.

وفي قراءة أولية يبدو أنّ هذا الأثر الأدبي قد بُني على فعل الشكوى بغية رفع البلوى..تلك الشكوى التي وجهها الشيخ أحمد البوني إلى صديقه مصطفى العنابي. أحد علماء الجزائر خلال القرن الثاني عشر الهجري.

أمّا مضمون الشكوى فتمحور حول وشاية الخصوم، ونجاحهم في مسعاهم، مما جعل الحاكم يسيء إلى أحمد البوني، ويسيء إلى صديق للبوني، بعزله من منصب الفتوى، من ثم كانت الشكوى مزدوجة، مؤسسة، في حقيقتها، على سلطة (فعل الوساطات)، بغض النظر عن تعقب الظالم، وإنصاف المظلوم..

إنّ المساءلة التي نخرج بها عن اليتيمة البونية هي: هل هذا الأثر الأدبي "مقامة" بالفعل، أم هو أحد فنون الخبر وكفى؟ أم هو مجرد خطاب أدبي، صادر عن ملكة جمالية، لها ما يبرّرها في عصرها؟ خاصة إذا اقتنعنا بأنّ "لغة الكاتب خاضعة لما هو سائد في عصره، من طرائق تعبيرية درج عليها مجتمعه"[2].

مهما افترضنا، فإننا لن نتعدى القول بأنّ الناص انطلق من قيم فنية تقليدية، كاعتياد السجع، والاجتهاد في الانتقاء اللفظي، واقتناص العبارات المشحونة بالفعل البلاغي، من مثل قوله:"..لوائح الصدق ظاهرة على صفحات أخبارك، وروائح الرجاء والظفر: استنشقناها من آثارك، كأنك بشير يعقوب، أو كاشف الضر عن أيوب".

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص218.

[2] طه وادي، الأسلوبية: ذاك المنهج الجديد، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يناير، 1990، ص22.

إذا وضعت اليتيمة داخل نظام لغوي خاص، من شأنه أن يكشف عن مقدار الأدبية فيه، وأن يرجئ مسألة تصنيفه إلى حين.

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدية[1] والشحاذة الأدبية وأقاصيص الأدباء السيارين الذين يجولون في البلاد متفاصحين بأدبهم، محتالين على الناس حيلا شتى في أخذ دراهمهم ودنانيرهم، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريري، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس النمامين لذوي السلطان للوقيعة بينهم وبين بعض العلماء، ولا مقامة، ولا يشبه المقامة.

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص238.

نشأ فن المقامات في العصر العباسي على يد بديع الزمان الهمذاني الذي اشتهرت مقاماته شرقا وغربا، والمقامة هي فن من فنون النثر الأدبي تتضمن حادثة يرويها راوٍ. تكتب بأسلوب شيّق بحيث تكون ألفاظها غريبة، وجملها مسجوعة، وخيالها واسع. تُعرّف على أنّها:" حكايات قصيرة مقرونة بنكة أدبية أو لغوية"[1]. ويعرفها يوسف نور عوض بقوله:" إنّها قصة قصيرة تشتمل على حبكة شاملة، ذات موضوع، وأبطالها لا يخرجون عن الإطار الذي رسمه لهم الكاتب في واقعهم الدرامي، وهذا لا ينفي بعض الاختلاف عن فن القصة"[2].

أمّا شوقي ضيف فيعرفها بقوله:" ليست المقامة، إذن، قصة وإنّما هي حديث أدبي بليغ وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة، فليس فيها من القصة إلاّ الظاهر فقط"[3]. تتكوّن المقامة من الشخصية، والسرد، والحوار، والحبكة، وأهم ما يميّزها هو أسلوبها ولغتها.

تبنى المقامة على الكدية (الحيلة) التي تنسج عليها مجريات القصة، ويساهم البطل في تطويرها وتأزمها، وتدور أحداثها في مكان وزمان معينين.

يكون موضوع المقامة إمّا مسألة أدبية أو دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو فكاهية...، وتحمل في داخلها لونا من ألوان النقد أو السخرية أو التهكم.

انتقل فن المقامات إلى الأدب الجزائري كغيره من الفنون الأدبية الأخرى عن طريق المحاكاة والتقليد؛ وقد اشتهر بهذا الفن ابن محرز الوهراني صاحب المقامات أو المنامات، فالأدباء الجزائريون لم يهملوا هذا الفن بل أقبلوا عليه وألفوا فيه، ومن خلال بحثنا في كتب الرّحلة عثرنا على ثلاث مقامات في العهد العثماني كانت من تأليف الرّحالة ابن حمادوش.

وصف في المقامة الأولى الطريق من تطوان إلى مكناس، وما رآه من غرائب، استهلها قائلا:" الحمد لله، طحى بي ضيق الأسباب، وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدة الاياس، إلى بلاد الملك مكناس، أخوض الغمار، لأجتني الثمار، وأقتحم الأخطار، لكي أدرك الأوطار...ومن غريب ما رأيت في هذا الطريق قرب المرج الطويل، وجدتهم يحصدون الشعير في خامس أبريل، وفي هذا المرج السمك تسعة بوري مقلو في ودكه بموزونة.

[1] تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1979، ص362.

[2] فن المقامات بين المشرق والمغرب لعوض يوسف نور، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص76.

[3] المقامة لشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، (د، ط)، 1954، ص9.

ومن غريب ما رأيت أني رأيت غرتين[1] كل واحدة في أفحوصها[2] فوق الماء تحضن بيضها. فلما بلغت المبيت شهد أهل الحي كلهم، كبيرهم وصغيرهم، أنّ الغر وأبا غطاس وطيور أخر لا يلدون إلاّ فوق الماء في الموضع الذي يكون عليه كقطعة حسير من الكلأ، ثم يبنون به أفحوصهم، ويبيضون ويفرخون، ولا يمس بيضهم الماء، وإن مسه الماء فسد، فإنّها تبني بناء صحيحا جدّا، وأتونا ببيض الغر، عظمه كبيض الدجاج ولونه كلون بيض الحجل[3] إلا أنّه أشد بياضا من بيض الحجل، وفيه نقط سود. والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء... "[4].

إنّ أغرب ما شاهده ابن حمادوش في طريقه من تطوان إلى مكناس طائر الغر في بركة بأحد المروج بحيث يبني أفحوصه على قطعة من حصير الكلأ، ويتعهده دائما حتى لا يمسه الماء فيفسد، ثمّ يصف بيضه وصفا دقيقا، ويصف، أيضا، قوارب صيد السمك.

رافق ابن حمادوش في رحلته هذه من تطوان إلى مكناس اثنين من التجار، فوصف الطريق الصعبة التي مرّوا بها، والأخطار التي واجهوها، ونقل ما شاهده من غرائب، ثمّ ختم المؤلف مقامته بقصيدة تبلغ تسعة عشر بيتا ذمّ فيها أولاد مختار على بخلهم، وسوء معاملتهم.

تخلو هذه المقامة من الكدية التي هي من أهم الخصائص المميّزة لها، والتي تبنى عليها، وإنّما كانت هذه القطعة الأدبية وصفا لغرائب ما شاهده ابن حمادوش في طريقه إلى مكناس.

وله مقامة ثانية سمّاها المقامة الهركلية[5]، يقول فيها:" الحمد لله حدى بي حادي الرّحلة إلى أن دخلت في بعض أسفاري هركلة، فنزلت بها في خان[6] كأنّه من أبيات النيران، أو كنائس الرهبان بل لا شك أنه من أبيات العصيان، فلذلك لا يسر به الناظر، ولا ينشرح له الخاطر، فاختصصت منه بحجرة، أو اتبعت أفعوان فدخلت حجرة، فغلقت بابي، لأحفظ حبائي، وأومن جنابي، من شدة أتعابي وكذلك كل من أصحابي، حتى مد الليل جناحه، وأوقد السماء مصباحه، وهدأت الأصوات،

[1] الغر طائر معروف في مصر بنفس الاسم.

[2] أفحوص الطائر: مكان بيضه.

[3] الحجل : طير في حجم الحمام.

[4] لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال لابن حمادوش، ص71- 74.

[5] هركلة : بلدة، أو ربّما يقصد بها: الضجيج لأنّها مشتقة من الهرج.

[6] خان: فندق.

وصرنا كالأموات، وتوغلت في حبائل النوم، ولم أدر ما هنالك من القوم، فلم يوقظني إلا جلبة الأصوات، وتداعي القينات، والتدافع بمنع وهات، وبعض هاد وبعض عات..."[1].

وصف ابن حمادوش الخان، وما حدث فيه من جلبة، وهرج، وصياح ممّا دفعه إلى شدّ الرّحال، والعزم على الرّحيل من ذلك البلد (الهركلة)، وقرر عدم العودة إلى هذا الفندق، كما ختم هذه المقامة، أيضا، بسبعة أبيات شعرية في نفس الموضوع.

وكتب ابن حمادوش مقامة ثالثة سمّاها بالمقامة الحالية تحدث فيها عن حالته بين النّاس، وكساد تجارته،ووصف فيها زوجته، يقول:" لما أن جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خف الريش، وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف، وقصر الطرف، وجفت الاخوان، وقلت الأخدان، وغلب الزمان، فارتفعت الأقران، وصعبت التجارة، وسهلت الخسارة، قُرنت بجارة غرّة[2]، عيشتها مرة، البذرة عندها ذرة، وميرة الحجيج عندها بعرة...لا تطلب إلا العنقا[3]، ولا ترغب إلاّ في الرّخ[4]، ولا تتغذى إلا بيض الأنوق، ولا تجني إلاّ ثمرة الخلاف، ولا تركن إلاّ لعدم الاسعاف، كأن ما أحبه عقر عيسها، وما أهواه نغص عيشها. غذتها أمّها لبان القرود، فشبت لا تألف المقصود...وهذا وقد جمعت نظافة الازار، إلى البعد، فيما أعلم، عن العار، كأنّها درة مصونة، أو جوهرة مكنونة..."[5].

وصف ابن حمادوش سخط زوجته عليه، ومغاضبتها له، فهي دائما ناقمة على حالتها المزرية معه، ومتذمرة من تجارته التي لا تروج، وخسارته للأموال، وتطلب منه ما لا يكون مثل طائر العنقاء، والرّخ، وبيض الأنوق ومعروف أنّ النوق لا تبيض.

ولا تفتأ هذه الزوجة في اختلاق المشاكل، فذلك دأبها كلّ يوم وكأنّ أمّها أرضعتها لبن القرود بحيث تقفز من خلاف إلى آخر، ولا يلبث ابن حمادوش حتى يصفها بصفات الجمال كالدّرة المصونة، والجوهرة المكنونة، وكأنّه أراد أن يداعب زوجته. وأخيرا ختمها بالدعاء، وأبيات من الشعر في الموضوع نفسه.

---

[1] لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال لابن حمادوش، ص78، 79.

[2] غرة : يسهل أن تخدع.

[3] العنقاء : طائر خرافي لا وجود له.

[4] الرّخ: طائر خرافي لا وجود له.

[5] لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال لابن حمادوش، ص 164، 165.

من خلال استعراض هذه المقامات الثلاث يمكن القول بأنّها لا ترتقي إلى فن المقامة، وذلك لغياب أهم الخصائص التي تميزها عن بقية الفنون النثرية الأخرى، أهمها الكدية (الحيلة)، والراوي، والبطل، والعبارة الاستهلالية (حدّثنا)، وإنّما مقامات ابن حمادوش هي مجرد وصف فقط إمّا للطريق أو الخان أو زوجته اعتمد فيها على الطرافة الأدبية، وعنصر الخيال والرمز، ولكنّها لا تمت بصلة إلى فن المقامة.

تعدّ المقامة من الأجناس الأدبية العربية القديمة، وهذا ما يقر به الباحثون مثل عبد المالك مرتاض الذي يرى المقامة " جنسا أدبيا عربيا بامتياز"[1]، والمقامة قصة طريفة، يهتم فيها الكاتب بالصناعة اللغوية ، وترصيعها بمختلف الصور البيانية، والمحسنات البديعية.

ومقامة محمد بن ميمون الجزائري، تحمل من رقة الأسلوب وصناعته الشيء الكثير، لكنها تنعدم من الخيال، فجاءت صورة طبق الأصل للواقع، وهذا ما أقره صاحبها (الكاتب) لأنه تم تأليفها "من صادق الخبر وصحيحه على ما تجده فيه من ألفاظ لغوية وأنواع بديعية وأخبار مستلمحة وكناية مستملحة"[2]. فيؤكد الكاتب بأن مقامته مزيج من صناعة اللفظ وصدق الخبر.

وقدم الكاتب الخبر على الصناعة، فما هذه الصناعة إلا خدمة للخبر، وهذا الخبر ليس صنعا من الخيال أو قصة طريفة مثلما عودتنا المقامات الشرقية، وإنما الكاتب شاهد على هذا الخبر ويتحرى في نقله للقارئ الصدق والأمانة وينمقه بالزخرف اللغوي فاعتماده "صادق الخبر ومعاودته تأليفه بالتنقيح"[3] هو عين التاريخ لأنه لا يتوقف عند ذكر الشخصيات الواقعية، وإنّما يزودنا بالتاريخ الدقيق للأحداث، ولهذا تعد هذه المقامة مرجعا هاما لمختلف الدراسات التاريخية

وجاء في لسان العرب "المقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس"[4] ويقصد بالمجلس المكان الذي تجتمع فيه أفراد القبيلة "ثم توسع العرب في معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم

[1] عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، (د، ط)، 1998، ص18.

[2] محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تح: محمد بن عبد الكريم، وزارة الثقافة، الجزائر، (د، ط)، 2007، ص113.

[3] المصدر نفسه، ص113.

[4] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000، مج12، ص224.

وأحاديثهم التي يقولونها في مجالسهم"[1] إلى أن أصبحت المقامة"الشكل الرسمي لخطاب القصة حيث كان يدور في بلاطات الخلفاء والأوامر ويحضره الخليفة والسلطان والوزراء"[2] .

ومحمد بن ميمون يعترف بأن ما تحتويه المقامة من تنميق وزبرجة، لم يكن وليد الصدفة، بل جاء عن رغبة وإرادة هي خدمة المجلس العالي حيث قال " أردت أن أخدم مجلسه العالي، فضمير الهاء يعود على "الداي محمد بكداش" وهو أعلى سلطة سياسية في البلاد.

فالمقامة تمثل "الجانب الثقافي" جاءت لخدمة مجلس محمد بكداش "الجانب السياسي" ويصبح بعد مرور الزمن "الجانب الثقافي" في خدمة "الجانب التاريخي".

*** سيميائية العنوان:**

العنوان هو العتبة الأولى التي من خلالها يتم الولوج إلى عالم النص، فلا يمكن أن نمر إلى المتن دون طرق العنوان ومحاولة فك رموزه و"تنبثق أهمية العنوان من حيث هو مؤشر تعريفي وتحديدي"[3] فالعنوان يضع القارئ أمام الإطار العام للنص فهو" نافذة النص على العالم ودليل القارئ إلى النص أي أن وجود النص من وجود العنوان"[4].

وما يسعى إليه الكاتب من خلال إحكام صناعة العنوان هو فعل القراءة، فبالقراءة يولد النص ويحيا ويتناسل وينتشر محققا كينونته. وما نلاحظه عن العنوان، أن الكاتب لم يضع عنوانا متداولا جاهزا، فيصفه أبو القاسم سعد الله "بالغريب" حيث قال:" والغريب أن ابن ميمون قد سمى كتابه في

[1] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط6، 1971، ص247.

[2] عبد المجيد دقياني، تقنية القاص في السيرة الشعبية العربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، ع05، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، جوان، 2009، ص146، 147.

[3] خالد حسين حسين، في نظرية العنوان، دار التكوين، دمشق، ط1، 2007، ص5.

[4] المرجع نفسه، ص493.

ذلك (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية) ولم يسمه مثلا المقامات المرضية أو نحو ذلك من التسميات حتى تتسق مع المحتوى"[1].

ونعتقد أن الغرابة تكمن في مخالفته لمن سبقه أو عاصره في وضع جنس النص الأدبي "المقامة" في العنوان مثل: المقامة البغدادية، المقامة الهمذانية، مقامات ومنامات الوهراني...

ثم يقدم لنا سبب هذه التسمية "حتى تتسق مع المحتوى" لم يفصل أبو القاسم سعد الله في اتساق العنوان مع المحتوى ولعله يقصد بالاتساق الجانب البلاغي أو النحوي وربما الدلالي.

وإذا لاحظنا العنوان من الجانب البلاغي نجد الكاتب أسرف في الصنعة اللفظية، ليلفت انتبه القارئ للعنوان فجرس السجع " مرضية، بكداشية، محمية " صبغ العنوان بمحسن بديعي، عهدناه في صناعة المقامة، فالجرس الموسيقي للعنوان ربط النص بجنسه "المقامة" دون ذكره في العنوان. والسجع لم يربط النص بجنسه فحسب، بل فصل بين أجزاء العنوان، فعندما تنتهي حركة السجع، يجد القارئ نفسه مضطرا للتوقف قليلا، ليفكر ويتدبر في هذا الجزء ثم يستأنف قراءة الذي يليه فيميط اللثام عن الجزء الذي سبقه.

وعليه تم تقسيم العنوان إلى ثلاثة أجزاء: التحفة المرضية/ في الدولة البكداشية/ في بلاد الجزائر المحمية.

"التحفة المرضية" تضع القارئ امام عدة تساؤلات واستفسارات منها: ما معنى التحفة المرضية؟ وما محتواها؟ وما هو مضمونها؟

"في الدولة البكداشية": تكشف له عن مضمون التحفة وهو أخبار من الدولة البكداشية أو تعريف بهذه الدولة.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص217.

فالقارئ ليس محددا بزمان أو مكان، فبالضرورة ليس كل قارئ يعرف هذه الدولة كل سؤال يطرح حول هوية هذه الدولة يجيبه الشق الأخير.

"في بلاد الجزائر المحمية" فيضبط له الإطار الجغرافي والتاريخي لهذه الدولة.

وضبط الكاتب الإطار الجغرافي والتاريخي لأنه يريد للنص أن يتجاوز حدوده التاريخية والجغرافية.

فالتناغم الموسيقي للعنوان أخبرنا بجنس النص، وسحر الأذن لتفتش العين عن مضمون النص ومحتواه.

فإذا كانت التحفة هي هذا الإنتاج الأدبي (المقامة) فإن المقامة تعبر عن حقل ثقافي، وهذا الحقل جاء لإرضاء (المرضية) الحقل السياسي الدولة البكداشية، والحقل السياسي يضبطه حقل جغرافي هو بلاد الجزائر المحمية، وكلمة محمية تحدد الإطار الزماني "حقل تاريخي".

فمحمية تبين أن الجزائر لا تتمتع بالاستقلال السياسي التام، وإنما هي دولة محمية أو تابع للدولة العثمانية، وعليه فإننا أمام حقلين سياسيين حقل مركزي هو الدولة العثمانية / الإسلامية، وحقل هامشي هو الدولة البكداشية (الجزائر)، وجاءت نسبة حقل الدولة البكداشية إلى "الداي محمد بكداش" لأنه يمثل السلطة المركزية في هذا الحقل.

والكاتب عندما تناول شخصية "محمد بكداش" وسلط الضوء على انجازها العظيم، تحرير وهران. نقل لنا صورة دقيقة لوضعية المركز في الجزائر خلال العهد العثماني.

جاءت التحفة المرضية في ستة عشر فصلا، وسمّى كل فصل مقامة تحكي جانبا من سيرة الوالي العثماني محمد بكداش (1117- 1121هـ)، والمقامة الأولى في نبذة من أخلاق محمد بكداش، ثمّ تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله. والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات، أما بعد ذلك فهي ترجمة متكاملة لسيرة وال عثماني وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعا، وقديما كتب العتبي المتوفى سنة 427هـ سيرة محمود الغزنوي سجعا

في كتابه عنه الذي سماه اليميني نسبة إلى لقب محمود الذي لقبه به الخليفة العباسي: يمين الدولة، ونسج على منواله العماد الأصبهاني في كتابه:" الفيح القُسيّ في الفتح القدسي" وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعا[1]. ولم يقتبس محمد بن ميمون في كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده، فقد اقتبس أيضا ألفاظا لغوية وأنواعا بديعية كما قال في مقدمته.

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص239.

1-المثل:

من قولنا هذا مثل الشيء ومِثله، كما تقول شَبهه، وشِبهه، لأن الأصل فيه التشبيه. وللعرب أمثال جيدة خلفوها لنا تدل على عقليتهم، أكثر مما يدل عليها الشعر والقصص، ولعل سبب ذلك يعود إلى أن المثل يوافق مزاجهم العقلي. وهو النظر الجزئي الموضعي لا الكلي الشامل. والمثل لا يستدعي إحاطة بالعلم أو شؤون الحياة، وللمثل مورد ومضرب.

فمورد المثل هو القصة أو الحادثة التي ورد فيه. ومضربه هو الحالة التي يستخدم فيها.

2-الحكمة:

هي لون من النثر وهي خلاصة نظر معمق إلى الحياة، وما يضطرب فيها من ظواهر، تصدر عن ذوي التجارب الخصبة والعقول الراجحة والأفكار النيرة.. وقائلها حكيم ينظر إلى الأمور نظرة شاملة ويحللها تحليلا دقيقا، ثم يصدر في شأنها حكما يظل سائرا مذكورا يعلق بالأذهان والقلوب. فيجري على الألسن عبر العصور والأزمان لأن الناس يجدون في هذه الحكم هداية وإرشادا وتوجيها إلى ما يعينهم على الفلاح في حياتهم.

تعدُّ **الأمثال الجزائرية** جزء هام وأساسي من الثقافة الجزائرية فهي تحاكي طبيعة الشعب الجزائري المنفتح الذي يجمع بين طياته الكثير من الثقافات، وسوف نستعرض إلى **أشهر الأمثال الجزائرية القديمة** كذلك سنذكر لكم معانيها ودلالاتها.

3- أشهر الأمثال الجزائرية:

تتنوع الأمثال الجزائرية في محتواها والمعى المقصود منها على النحو الآتي:

1/ الناس لاهية بالناس وحمة لاهية بالراس: يعبر هذا المثل عن الشخص الأناني الذي لا يهتم بمصالح وأولويات الآخرين، ويسعى دائما خلف تحقيق مصالحه.

2/ كب القدرة على فمها كل بنت تطلع لأمها: يقال هذا المثل لوصف حجم التشابه بين البنت وأمها.

3/ خذ الكذاب بالنسيان: يصف هذا المثل حالة الشخص الذي يظهر كذبه عندما ينسى أحاديثه الكاذبة.

4/ يرقد بعين واحد كي الذيب: يقال هذا المثل للدلالة على مكر ودهاء الشخص.

5/ الذي خرج من داره قل مقداره: أي إنسان لا يشعر براحته واستقلاله سوى في المنزل الخاص به.

6/ المحبة تجي بالكيف ماشي بالسيف: يشير إلى أنّ المحبة شعور متوطن في الإنسان يتولد معه ويكبر به ولا يمكن إرغامه أو إجباره عليه.

7/ يا قاتل الروح وين تروح: يعبر هذا المثل على أنّ القاتل سوف ينال عقابه عاجلا كان أم آجلا.

8/ مول التاج ويحتاج: يعبر ع احتياج الإنسان الدائم مهما بلغ من القوة والغنى إلى مساندة غيره.

يبدو أنّ الجزائر –مثل بقية البلدان العربية– عرفت المقامات مبكرة، إذ كانت فنا جديدا أعجب به أدباء العرب في كلّ مكان وأخذوا يتدارسونه، ونلتقي في القرن السادس الهجري بجزائري يكتب في هذا الفن هو رُكن الدّين أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني، الذي زار مصر أيام السلطان صلاح الدين، وتوفي سنة 575هـ بقرية على باب دمشق تدعى (داريا) بعد أن تولى الخطابة بها لمدة غير يسيرة، وسلك طريق الهزل في كتاباته خاصة في منامه الكبير[1]. وهو صاحب المنامات الغريبة، والمقامات العجيبة والرسائل اللطيفة.

جُمعت هذه الأدبيات في مُجلد بعنوان: "منامات الوهراني ومقاماته ورسائله" تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، مع مراجعة عبد العزيز الأهواني.

ومما وقع عليه الاختيار في هذه البسطة، وصفه لبغداد حين نزوله بها واستئناسه بالمقام فيها، يقول الوهراني في البدء:" لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، فما مررت بأمير إلا حللت ساحته واستمطرت راحته، ولا وزيرا إلا قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاض إلا أخذت سيبه، وأفرغت جيبه، فتقلبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار، حتى قربت من العراق، وسئمت من الفراق، فقصدت مدينة السلام، لأقضي حجة الإسلام. فدخلتها بعد مقاساة الضر ومكابدة العيش المر، فلما قر بها قراري، وانجلى فيها سراري، طفتها طواف المفتقد، وتأملتها تأمل المنتقد، فرأيت بحرا لا يعبر زاخره، ولا يبصر آخره، وجنة أبدع جنانها، وفاز باللذة سكانها، لا يميل عنها المتقون، ولا يرتقي إلى صفتها المرتقون، (كمثل الجنة التي وعد المتقون)، فأرحت نفسي من سلوك الغور والفج، وجلست انتظر أيام الحج، وتاقت نفسي إلى محادثة العقلاء، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء، فدلني بعض السادة الموالي إلى دكان الشيخ أبي المعالي"[2]. يمكن رصد مقولات الخطاب عند الوهراني على هذا النحو:

تتجاذب هذه التوزيعة الثلاثية سلطة الانتقاء لآليات الكتابة السلفية، حيث يلمس القارئ توظيف الناص لأدوات الأداء التقليدي كاعتماد نظام الفواصل، وتقصي محسنات القول، وتعزيز

[1] أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر، 1991، ج2، ص343.

[2] الوهراني، مناماته ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان، محمد نغش مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص1، 2.

المعنى بالاقتباس القرآني، مع اصطناع السرد كبنية شمولية تتساوق ضمنها المكونات المؤسسة لهذا الخطاب، وعلى رأسها الكلمات الآخذة بتلابيب التشكيل الأدبي الذي يهيمن على كتابات محمد بن محرز الوهراني، باعتبار أن "العمل الأدبي تصنعه الكلمات"[1]، وذلك حين ينزاح بها منشئها عن مسارها المعجمي، إلى مسار دلالي تأويلي، تستقيم معه كل الرهانات المعنوية الممكنة، وربما المستبعدة، يختار الوهراني سلسلة كلمات، فتتضح تلك المزاوجة بين الحمولة المعنوية، والمقصدية الفنية، وتسير الدلالة نحو الإشعار بنفاذ صبر الكاتب تجاه وضع معين، والإعلان عن النية الجادة في الانفلات من قبضة جو معتم، قد تكون العتمة فيه وليدة تشابك علائقي، أساسه القهر الإنساني الذي، غالبا، ما يكون وراء نفاد الصبر، وبالتالي نشدان الانطلاق إلى فضاءات مغايرة، من شأنها توفير حياة جديدة، لا أقول مثالية، ولكن حياة أضأل قهرا، وأقل غبْنا. وتلك، لعمري، طموحات مشروعة، يشرئب إليها الفرد حتى وإن لم تسلم في بعض الأحيان من تسلل تدخلات المجموع، وما تنطوي عليه من كدر ونغص.

وإذا كانت هذه السلسلة من الكلمات التي بُني عليها المقتطف، مشحونة بغُصّة القهر، موسومة بالتدبير العقلاني للمغادرة، فإنها وفي نفس الوقت مَدْعاةٌ إلى الفحْص الفنّي، إن صحّ القول، إذْ لم يغفل صاحبها تلك المسحة الجمالية المطلوبة، بل حرص على تلوينها بنغمة إيقاعية إن على مستوى الحروف أو على مستوى الصيغ، وكلاهما يَصُبُّ في وعاء التفاعل اللغوي المؤسّسِ على التنضيدية المهيمنة لِحَرْفَيْ: الباء (مآربي، مغاربي، غاربي) ثم الرّاء (الضر، المر) فمن دلالات حرف الباء: الاتساع والامتلاء، ومن دلالات حرف الراء: الفزع والخوف، فيكون الربط بينهما وبين الحالة النفسية للكتاب واضحا، مناسبا: امتلأت نفسه قهرا، واتسع عنده الشعور بالاضطراب، فتولد عن ذلك الإحساس بالخوف والفزع، وراح يضرب في الأرض قاصدا بغداد بعد أن أعياه طرق الأبواب، واستجداء ذوي المناصب، ألمْ يُصرِّحْ فيما بعد:" فما مررتُ بأمير إلا حللت ساحته ، وأمطرت راحته، ولا وزيرا إلا قرعت بابه، وطلبت ثوابه، ولا بقاض إلا أخذت سيبه، وأفرغت جيبه"[2].

[1] تودورف، الشعرية، تر: شكري المبخوت ورجاء سلامة، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص38.

[2] الوهراني، مناماته ومقاماته ورسائله، ص1.

إنها نفثة صدر مكلوم، وخاطر مهموم، يُغَلفُها قناع اليقين بجدارة الذات الحاكية، (ذات الكاتب) وبِحتْمية الاستجابة لها وتلبية احتياجاتها وفي هذا ما فيه من الإحساس، ربما، بالتعويض عن تلك العلة التي استدعت مغادرة الديار، والجنوح إلى الأسفار.

يحُط الوهراني الرحال ببغداد، فيجري قلمه في وصفها، وينقلها عبر الحرف مشهدا رائقا، تهفو إليه القلوب، وتتوق إلى رؤيته الأبصار، كيف لا؟ وبغداد جنة على الأرض بشهادة جامع الشبه بينها وبين الجنة السماوية.

إنها الاحتفالية المختزلة بطبيعة بغداد وساكنيها، الذين سيختار الوهراني واحدا منهم ويخوض معه الكلام في جلسة، يثريها الحوار وتتنوع فيها الأخبار. وسأقتصر على خبر بداية الجلسة. يروي الوهراني خبر جلسته مع الشيخ أبي المعالي في الدكان، فيقول:" حتى جلست عنده. فحين نظر إلي، ورأى أثر السفر علي، بدأني بالسلام، وبسطني بالكلام، وقال: من أي البلاد خرجت؟ وعن أيها درجت؟ فقلت من المغرب الأقصى، والأمد الذي لا يحصى، ومن البلد الذي لا تصل إليه الشمس حتى تكل أفلاكها، وتضج أملاكها، ولا القمر حتى يتمزق سرجه، ويتداعى برجه، ولا الرياح حتى يحجم إقدامها، وتحفى أقدامها، قال: كيف معرفتك بدهرك، ومن تركته وراء ظهرك؟ فقلت: أما البلاد فقد دستها وجستها، وأما الملوك فقد لقيت كبارها وحفظت أخبارها، وقد كتبت في ذلك مجلدا وتركت ذكرهم فيه مخلدا. فأي الدول تجهل؟ وعن أيها تسأل؟ فقال: أول ما أسألك عن دولة الملثمين وأبناء أمير المسلمين، فقلت هيهات، يا بُعْدَ من مات خمدت نارهم، وبادت آثارهم، واسْوَدّ نادِيهم، ومَلكَتْهُمْ أعادِيهِم:

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم * * بعد الممات جمال الكتب والسير

أفِلتْ بُدورُها، فتعطلت صدورها * * وطلعت نحوسها، فغابت شموسها

أمست خلاءً، وأمسى أهلها احتموا * * أخْنَى عليْها الذي أخْنَى على لُبَدِ"[1]

يتموقع هذا المقتطف بين بِنْيتيْ: الوصف والإخبار، ويمتطي صاحبه صهوة لغة عصره، فيُحَلّقُ في أجواء من الكثافة التعبيرية في شكل مساءلة موزعة على محورين: محور الاستبدال؛ ومحور التوازنات الصوتية. والمحوران يُطَعِّمان النص بتشكيلٍ مُتميز، لا يمكن تجاهل انتظامه، ولا التغاضي عن مُؤهِّلاتِ أدبيته.

[1] الوهراني، مناماته ومقاماته ورسائله، ص2.

من محور الاستبدال مثلا، أنتقي عبارة: "ولا الرياح حتى يحجم إقدامها، وتحْفى أقدامها" إذ يظهر التشكيل الإستعاري المعتمد في بنية الألفاظ المستعملة والدالة على طبيعة العلاقة بين المستعار، والمستعار له في قالب تصويري، يساهم الخيال في بنْيَنَته، لقد نسب الكاتب أفعالا إلى الرياح باعتبارها صدارة الشّخْصَنة والتّجسيم، فإذا بها وهي العنصر الطبيعي المشاكس، إن صح القول، لا تصل المغرب الأقصى حتى تستكين، واستكانتها وليدة تقهقر عُتوّها، وكأنها تفقد بين المحطة والمحطة قوتها بالتدريج، حتى إذا وصلت، حدث عندها ما يعمق معنى الشّخْصَنة والتّجْسيم: يحجم إقدامها/ تحفى أقدامها.

إن صورة الإحجام عن الإقدام، كصورة أولى، تنتقل بالدلالة من المعنى العادي إلى المعنى المتخيل، يمنح الرياح خصائص كائن حي، أنهكته الانطلاقة، لأنه استثمر فيها كل جهده، ولم يحسن توزيع هذا الجهد على المراحل المتبقية للوصول إلى نقطة الهدف المنشود، فتسلل إليه الضعف، وانقلب حماسه إلى إحجام، وإقباله إلى نكوص.

وقد تكون هذه الصورة إنما أنشئت للدلالة المؤكدة على بعد المسافة بين المشرق والمغرب الأقصى وعلى تحمل الكاتب مشاق التنقل إلى بغداد وكأني به ينقل معاناته، واشتداد الأمر عليه، ويسبغهما على الرياح، وهو ما يسمح بخلق نوع من التوحد بيْنه وبيْن أحد العناصر الطبيعية المعروفة بقلب الأجواء، وتسليط الاضطراب، وخلخلة الاستقرار .إنه الوجه الجامع بين ما يتولد عن التنقل وبين ما يتولد عن حركة الرياح، وتلك هي الصورة الثانية التي ستأخذ برقاب صورة مكملة حين يقول الكاتب عن الرياح: "وتحفى أقدامها"، إذ بهذه الصورة، تتعزز دلالة الإنهاك واشتداد الأمر على طالب الوصول إلى هدف معين حين يشمر عن ساعد الجد، ويخوض غمار الكدح، وتتقاذفه الصعاب، وتدحرجه الهزات إلى أن يصل وقد نفد ما عنده، وحفيت قدماه، وخارت قواه، بعدما كانت عاتية مجلجلة تمتلك مؤهلات الإقدام قبل بأن تحفى الأقدام.

أخلص إلى أن الوهراني أجرى نشاطا استعاريا، وظف من خلاله عنصر الاستبدال كطريقة صوغ جمالية تنبئ عن ارتباط العلاقة بفعالية السياق، حيث يبرز نوع من التناسب المنطقي بين فعل تنقل المسافر من مكان إلى مكان بعيد داخل زمن معين، وبين ما ينجر عن ذلك من تذبذبات وانزلاقات، تقلب وضع الاستقرار، وتحيله إلى وضع من الاضطراب والمناوشة، إن صح القول، خاصة إذا كان هذا التنقل خاضعا لشروط تنقلات القرن السادس هجري (استعمال الدابة كوسيلة

مواصلات معتمدة) وتلك، لعمري، إحدى مواصفات الاستعارة المقبولة في نقدنا العربي القديم، ألم يقول ابن رشيق: "وخير الاستعارة ما بعد وعلم في أول وهلة أنه مستعار، فلم يدخله لبس"[1].

فعلا من أين يأتي اللبس إذا جمعنا بين صورة اضطراب المتنقل وبين صورة اضطراب الطبيعة في شكل رياح؟ كلاهما يغادر من محطة إلى أخرى، كلاهما يجعل (الحركة) ديْدنه، كلاهما انطلاقته قوية، وتوقفه دلالة تعب وفقدان لقابلية المضي. إنه السكون الذي يعقب الحركة، والاستقرار الذي يعقب الاضطراب، وبعبارة مختزلة، إنها تجليات الدورة الحتمية لثنائية البدء والختم لمختلف المجسمات الكونية. ومن التوازنات الصوتية، الضاربة في أعماق النغمية، أنتقي قول الكاتب في الحديث عن دولة المرابطين (الملثمين): "خمدت نارهم، وبادت آثارهم، واسود ناديهم، ملكتهم أعاديهم" ولإبراز النغمية في هذه الفواصل، قد يجدر توضيحها في الترسيمة الآتية:

هذا التوزيع المبْنِيُ على التوَازُنيْن الصوتي والكمّي، ساهم في تشكيل إيقاعي داخلي منتظم، ينبئ عن نية جمالية مشرئبة إلى عرضٍ موسيقي باعتبار أن "الموسيقى في العمل الأدبي، شعرا كان أم نثرا، ليست عنصرا ثانويا، بل هي من عناصره الجوهرية التي لا تكتمل أدبيته من دونها"[2].

ولعله يمكن القول وبعد محاولة القراءة لهذا النموذج من كتابات (الوهراني) أن الرجل حافظ على ذوق عصره، وبنى طقوسه التعبيرية على نسيج لغوي منسجم؛ يجمع بين تصوير المتخيل وعرضه في قالب فني، مُؤسَّس على المعاودة الإيقاعية والتي يُمَظهرُها نظام الفواصل، وتكرار الحروف كالراء (نارهم/ آثارهم) وكإبدال (نايهم/ أعاديهم) عِلْماً بأن "جبروت الحرف يذهب بعيدا، وبسبب طغيانه (...) فإنه يؤثر في اللغة ويبدلها، وهذا لا يحدث إلا في اللغة الأدبية المتألقة"[3]، التي تعتمد أسلوبا منمقا مختلفا عن الأسلوب العادي، منفلتا من المعيار إلى فضاء الوظيفة الجمالية الخاضعة لقانون انتهاك المألوف وإسقاط خصائص المحسوس على خصائص المجرد في تلوينات أدائية دالة على دربة ومران عند منشئها.

---

[1] ابن رشيق المسيلي القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، 1955، ج1، ص270.

[2] عبد القادر هني، نظرية الإبداع في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص220-222.

[3] فرديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986، ص47.

تعدّ مقامة الوهراني أول مقامة شبيهة بمقامات الحريري وبديع الزمان الهمذاني في تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدراهمهم ودنانيرهم[1]، ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجالها، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب، وقد سأله بعد الملثمين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صقلية النورماندي، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها في مصر إلى دولة الأيوبية. ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدامه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بني العباس ببغداد، ويمتدح المستضيء الخليفة حينئذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه. ولعل أسلوبه اتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة، إذ يتميز سجعه بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد. وتلك طريقته العامة في رسائله الكثيرة، إذ يخلط السم بالعسل، وقد تصبح سما خالصا. وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضي الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم. ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة.

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص247.

تعدّ فنون النثر الجزائري القديمة إرثا أدبيا زاخرا بالأشكال الأدبية، ألف فيها الجزائريون بعد الفتوحات الإسلامية، وهي تصلنا بتاريخنا القديم وتربطنا بأنساقه الثقافية. لها من الخصوصيات ما يجعلنا نتعرف على الحياة الاجتماعية للمجتمعات حينئذ في مراحل مختلفة من تاريخها. كما نتعرف على قيّمها، وعاداتها وتقاليدها، ونمط عيشها. وهو ما يمنح هذه المادة الأدبية هوية خاصة، بحيث لها القدرة على ملامسة وجدا القارئ والتأثير فيه، وإغناء معرفته بذاته وبهويته.

لذلك تظل الفنون النثرية الجزائرية في حاجة إلى دراسات نقدية جادّة، ووفقا لمناهج البحث المعاصرة، إذ لم تلق هذه الفنون الاهتمام اللائق بها من قبل الباحثين المعاصرين بحجة صعوبة الحصول على المادة الأدبية، رصدها وتجميعها في مقابل انشغالهم بجنس الرواية التي أصبحت تختزل الفن النثري الجزائري في نوع فني واحد. ممّا غطى على إمكانية الالتفات إلى الأنواع الأخرى القديم منها والحديث. حيث مورس عليها الإقصاء، فخرجت من دائرة الضوء لتتقوقع في العتمة على الرّغم من أنها تتيح للباحثين مقترحات كثيرة لتوسيع مجالات الاشتغال النقدي، فضلا على تنشيط البحث في التراث الثقافي المحلي ونشر ذخائره وتحقيق مخطوطاته مما سيؤثر إيجابيا في الحياة الثقافية الجزائرية الحديثة.

إنّ تجنب الجاهز بخصوص الفنون النثرية الجزائرية، وكذا تجاوز المتفق حولها، هو ما يحركنا نحو بناء مشهد أدبي بالبحث عن ملامح الصورة كاملة في الأدب الجزائري لضمان تواصل الحلقات، لاسيما وأننا وجدنا أنّ الفراغ الذي تعاني منه الساحة الأدبية في الجزائر – إما بضياع المدونة الأدبية القديمة أو بإهمالها– هو الفضاء الأمثل لتواجد الباحث[1].

وقد قادنا الاهتمام بهذه الذاكرة الثقافية إلى الوقوف عند الفنون النثرية الجزائرية القديمة بتعدّد أنواعها: الخطب والوصايا والرسائل والمقامة والأمثال والحكم.

[1] موسى سترة، الفنون النثرية في الأدب الجزائري القديم، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، مجلد09 العدد 05، 2020، ص929.

تشكل فنون النثر الجزائري القديمة بجميع أشكالها مظهرا من مظاهر التشكيل الجمالي الأدبي، فهي لغة أدبية مقصدها التأثير في النفس، لأنها تنبثق من تراكم التجارب الإنسانية. وهي نتيجة لتفاعل الكتاب مع نسقهم التاريخي والاجتماعي، تستجيب لحاجات نفسية واجتماعية وفنية، ونظرا للأهمية التي تكتسبها هذه الفنون النثرية، رأينا ضرورة لفت انتباه الدارسين إلى هذا الحقل الأدبي البكر وعرض أشكاله التعبيرية الفنية المختلفة. وجعلنا ذلك غايتنا ومقصدنا.

إنّ فنون النثر الجزائري القديمة تغتني بأشكال تعبيرية كثيرة، وتضع بين يدي متلقيها ثراء في الأشكال والمضامين، لذلك فهي في حاجة إلى باحث جاد ينفض الغبار عن تراث أدبي ضخم يتكتم على التاريخي والسياسي والاجتماعي في لبوس أدبي جمالي. في ضوء ما حملته المناهج النقدية واللسانية المعاصرة من آليات وإجراءات تحليلية قرائية. قصد طرح إشكالية تجنيس هذه الفنون وتقديمها بشكل مختلف تنكشف في ضوئه المستويات الجمالية لهذه الفنون الكتابية.

بيّنت هذه المحاضرات أنّ فنون النثر الجزائري القديم على الرّغم من تأثرها بفنون النثر في المشرق العربي إلا أنّها استطاعت أن تتجلّى للعيان بخصوصيتها التي تميّزها عن غيرها، وقد استمدت هذه الخصوصية من الواقع الاجتماعي والسياسي والدّيني للجزائر من حيث المحتوى والدلالة،كما اكتسبت خصوصية فنّية من خلال الخصائص الفنية التي انبنت عليها.

(1) القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

أوّلا/ المصـــــادر:

(2) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ضبط وشرح زكي مبارك، دار الجيل بيروت، ط4، 1972، ج 3 . 4.

(3) الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، دار الحكمة، لندن، ط1، 2005.

(4) أبو بحر عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، مصر، 1969، ج1.

(5) بكر بن حماد التاهرتي الدر الوقاد، تقديم وجمع وشرح محمد بن رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، ط1، 1966.

(6) البلاذري، فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987.

(7) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1982.

(8) حسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008.

(9) أبو حمّو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية، تونس، (د، ط)، 1862.

(10) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، مطبعة بريل، نيدن، (د، ط)، 1889.

(11) رسائل أبي الحسن بن مسعود اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، ط1، 1981.

(12) ابن سعد، الطبقات الكبرى، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، (د، ط).

(13) أبو سالم العياشي، ماء الموائد، تح سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006.

(14) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، (د، ط)، (د، ت).

(15) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية)، تح: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.

(16) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب السلطانية، (د، ط)، 1919،ج 14.

(17) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمّى "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر "، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000.

(18) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ الجزائر في القرون الوسطى من كتاب العبر من ثلاثة أجزاء، جمع وتقديم: سعيد دحماني، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط1، 2011.

(19) عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ط)، 1983.

(20) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت).

(21) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تح: محمد المرزوقي، محمد لعروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1966، ج1.

(22) مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د، ط)، (د، ت).

(23) محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1286هـ.

(24) محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تح: محمد بن عبد الكريم، وزارة الثقافة، الجزائر، (د، ط)، 2007.

(25) ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، من تقييدات ابن المفتي حول باشوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة، العلمة، ط1، 2009.

(26) المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.

(27) يحيى بن خلدون، بغية الرّواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980.

ثانيا/ المراجع:

(28) أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د، ط)، 1964.

(29) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت).

(30) بحاز إبراهيم: عبد الرحمان بن رستم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ط)، 1990.

(31) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1979.

(32) حاجيات عبد الحميد، أبو حمّو موسى الزياني، حياه وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982.

(33) حسين علي محمد، التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط6، 2005.

(34) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، (د، ط)، (د، ت).

(35) خالد حسين حسين، في نظرية العنوان، دار التكوين، دمشق، ط1، 2007.

(36) رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1986.

(37) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات: الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1.

(38) شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط3، (د، ت).

(39) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط6، 1971.

(40) الشوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، القاهرة، (د، ط)، 1954.

(41) صالح بن رمضان، المتكلم في المراسلات السردية القديمة، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2011.

(42) طه وادي، الأسلوبية : ذاك المنهج الجديد، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يناير، 1990.

(43) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، (د، ت)، (د، ط).

(44) عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تح: أحمد بن ميلاد، محمد إدريس، تقديم ومراجعة: حمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

(45) عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 2002، ج1.

(46) عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، ط1، 1986.

(47) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 1996.

(48) عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، دار هومة، الجزائر، (د، ط)، 2003.

(49) عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، (د، ط)، 1998.

(50) عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية، وزارة الأعلام، بغداد، 1972.

(51) عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، الجزائر، (د، ط)، (د، ت).

(52) عوض يوسف نور، فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1979.

(53) فائز الداية، علم الدلالة العربي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1985.

(54) فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، ط1، 1989.

(55) فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، (د، ط)، 1991.

(56) في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، دار الثقافة الدار البيضاء، ط6،1.198.

(57) أبو القاسم سعد الله، أشعار جزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

(58) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى القرن 14، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ج1.

(59) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 1981.

(60) لؤي حمزة عباس، بلاغة التزوير (فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم)، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1، 2010.

(61) محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 1981.

(62) محمد علي بن علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار صادر بيروت، (د، ط)، (د، ت)، ج2.

(63) محمد العيد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط1، 1989.

(64) محمد مسعود جبران، في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004، ج2.

(65) محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، (د، ط)، 1992.

(66) مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني، مطبعة اتحاد كتاب العرب، دمشق، (د، ط)، 2002.

(67) مصطفى الزباخ، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين، الدار العلمية للكتاب الدار البيضاء، الدار العلمية للطباعة والنشر بيروت، (د، ط) ، (د، ت).

(68) موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط2، 1981.

(69) هشام جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني هـ/ السابع والثامن م)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

(70) أبو يوسف عبد الله القرطبي، بهجة المجالس وشحذ الذهن والهاجس، تح: محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف، (د، ت)، ص27.

ثالثا/ المعاجم:

(71) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر بيروت، ط1، 2003.

(72) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000، مج12.

رابعا/ المجلات:

(73) عبد المجيد دقياني، تقنية القاص في السيرة الشعبية العربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع05، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، جوان، 2009.

مقدّمـــــــــة.....**1**

1/ الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر.....**2– 9**

1- أصل السكان.....2- 4

2/ الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر.....4- 9

2/ تعريب الجزائر.....**10– 13**

* العوامل التي أدت إلى انتشار العربية في الجزائر 10- 13

1- هجرة بعض الفرق الإسلامية إلى بلاد المغرب.....10- 11

2- أثر تأسيس الدولة الرستمية في التّمكين للعربية من الانتشار.....11- 12

3- الرّحلة إلى المشرق لطلب العلم.....12

4- الهجرة الهلالية.....13

3/ لمحة عن الأدب الجزائري القديم.....**14– 25**

1- الدولة الرستمية.....14- 16

2- فترة الأغالبة.....16- 17

3- الفترة الفاطمية.....17- 18

4- الفترة الصنهاجية.....18- 20

5- الفترة الحفصية.....20- 21

6- فترة المرينيين.....22

7- فترة الجزائر العثمانية.....22

8- عصر الدّايات.....23- 25

4/ الخطب والوصايا (الدولة الرستمية، الدولة الحمادية).....26– 29

5/ الخطب والوصايا (الدولة الزيانية، العهد العثماني).....30– 33

6/ الرسائل الديوانية.....34– 58

1- فن الترسل في العهد الرستمي.....38- 45

أ/ موضوعاته.....43

ب/ خصائصه البنائية.....44- 45

1- المقدمات.....44

2- المضمون.....44

3- الخاتمة.....44- 45

2- فن الترسل في العهد الحمادي.....45- 52

أ/ خاصية التقابل والتشاكل.....47- 49

ب/ البنية الدلالية للنص.....49

ج/ المستوى الصوتي.....50

3- فن الترسل في العهد الزياني.....52-57

* نماذج من الرسائل الديوانية.....55- 57

4- فن الترسل في العهد العثماني.....57- 58

7/ الرسائل الإخوانية.....59– 67

* موضوعاتها.....60- 61

1- رسالة ابن الربيب التيهرتي.....62- 64

2- رسالة عبد الكريم الفكّون.....64- 65

3- رسالة تعزية لمحمّد بن حسين.....65- 67

8/ رسائل إلى الباب العالي لأحمد باي قسنطينة.....68– 69

9/ تاريخ المقامات وخصائصها المشتركة.....70– 72

10/ مقامات ابن حمادوش.....73– 76

11/ المقامة عند ابن ميمون.....77– 81

* سيميائية العنوان.....78- 80

12/ الأمثال والحكم في الجزائر.....82– 83

1- المثل.....82

2- الحكمة.....82

3- أشهر الأمثال الجزائرية.....82- 83

13/المنام الكبير لابن محرز الوهراني.....84– 89

14/ خصائص النثر الجزائري القديم.....90– 91

خـــــاتمـــــــة.....92

قائمة المصادر والمراجع.....93– 97

فهـرس الموضوعـــات.....98– 100